جامعـــة الأزهر
كلية الدراسات الاسلامية والعربية
قسم العقيدة والفلسفة

محاضرات فى العقائد

دكتورة
ليلى زكى قطب

١٩٨٦ - ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اللهم انا نستعينك ونستهديك ونسالك الرعاية والتوفيق .

هذه محاضرات فى العقائد اقدمها لطالباتى دارسات العقيدة ومحبى العلم ولقد قصدت فى هـذه المحاضرات ان اعرض لبعض المشـكلات التى دار الفكر الاسلامى حولها وكذلك من قبل الفكر اليهودى والمسيحى بغية أن يحل مغاليقها وأن ينفذ الى بواطنها كما دار الفكر الانسانى من قبل ومن بعد حولها لنفس الغاية ولم يتوصل الى حلها الا الفكر الاسـلامى كمسالة الالوهية والنبوات والسمعيات ولقد وضعت فى اعتبارى أن اعمل مقارنة لبعض تلك المسائل بين الأديان السماوية الثلاثة حيث أن الوقت لن يتسع لدراسة كل المسائل المتعلقة بالعقائد .

واحببت أن اوضح فى هذه المحاضرات كمال الدين الاسلامى وان اغلق الباب على مدعى الالهام والتلقى من السماء وجعلت رسـالتى فى هذه المحاضرات تبديد الظلام واشاعة النور وتثقيف العقول وتطهير القلـوب وتقويم السلوك والكشف عن التأويلات فى العقـائد النصرانية واليهـودية وما ترتب عليها من آثار عقلية والفرق بينها وبين عقائد الاسلام الخالصة من الشوائب المنزهة عن الأهواء .

وفى الختام اقول لطالباتى لا تلعنوا الجهل بل تعلموا كلمة وعلموها للآخرين .

واننى قد وضعت هذه المحاضرات لتكون مرجعا لهن ليسهل عليهن استذكار المقرر والله ارجو ان ينتفعن بها كما ارجو لهن من الله العلى القدير التوفيق والنجاح .

د. ليلى قطب

القاهرة ١٩٨٦/١٠/١م

الباب الأول

الألوهية

تمهيـــــــــد :

أولا : تعريف الدين :

(أ) الدين فى اللغة :

كلمة دين عربية أصيلة ليست فارســـية أو عبرية معربة كما يدعى البعض فهذه محاولات فاشلة لأنه من تصاريف هذه اللفظة وتعدد صيغها وتشعب استعمالاتها ما لا يمكن أن يحدث للكلمات المعربة وأن لفظة دين فى اللغة العربية من أكبر الألفاظ ثراء بالمعانى والمدلولات ومعانيها الكثيرة جعلتها غير واضحة أو محدودة المدلول فالباحث عن معنى هـــذه اللفظة فى معجم اللغة يرى لها مدلولات كثيرة هذا بالاضافة الى أن هذه المعانى على كثرتها لا تجمع بينها جامعة ولا تؤلف وحدة بل تجد بينها من المعانى المتناقضة فمن معانيها .

يوم الدين أى يوم الجـــزاء . والدين بمعنى الطـــاعة والدين واحد الديون . ودينت لرجل أى أقرضته فهو مدين ومديون ورجل مديون كثر ما عليه من الدين . ومديان أى عادته أن يأخذ بالدين ويستقرض . وتداين القوم أى أخذوا بالدين . والدين الجزاء والمكافأة والى غير ذلك من المعانى الكثيرة ورغم هذا التضارب فى المعنى اللغوى لكلمة دين فاننا نســـتطيع أن نرد معانى هذه اللفظة فى اللغة الى استعمالات أربع لا تتعداها .

١ ــ دين بمعنى الحكم والقهر والمحاسبة فنقول دان الناس أى قهرهم على الطاعة وفى الحديث الشريف الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

٢ ــ دين بمعنى التسخير والخضوع والتسليم والذل .
مثل « دنته فدان لى » أى ذل وخضع لى وفى الحديث الشريف « أريد من قريش كلمة تدين بها العرب » أى تطيعهم وتخضع لهم .

٣ ــ الدين بمعنى الجزاء والحساب والمكافأة .

٤ ــ دين بمعنى الاعتقاد وذلك مثل قولك (دنت به) أى التزمت به عقيدة ومذهبا فالدين هذا معناه الطريقة التى يسير عليها المرء . مثل قوله تعالى **« لكم دينكم ولى دين »** .

اذن فكلمة دين اذا تعدت بنفسها « دان دينا » كان معناه الحكم والسلطان واذا تعدت باللام دان له « كان معناه الخضوع والانقياد واذا تعدت بالباء « دان به » كان معناه الجزاء والحساب والعقيدة والشريعة باعتبار الانقياد والطاعة .

(ب) الدين فى الاصطلاح :

- ينقسم الباحثون فى تعريف الدين الى فرق ثلاث اساسية :
- الفريق الاول يرى ان الدين يشمل كل الديانات الصحيحة المستندة الى الوحى السماوى تلك التى تتخذ معبودا واحدا هو الخالق المهيمن على كل شىء . كما تشمل تلك الديانات الخرافية التى هى وليدة الخيالات والاوهام . وكل ديانة تقوم هى او جانب منها على عبادة التماثيل او الحيوان او الكواكب .. الخ .

ويقولون ان القرآن الكريم سمى جميع هذه دينا بقوله « ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ويقول « لكم دينكم ولى دين » . فالدين عند هذا الفريق هو الاعتقاد بوجود ذات لها قوة غيبية بها تتصرف فى الطبيعة والناس حسب مشيئتها وارادتها اعتقادا من شأنه ان يبعث على التوجه اليها بالطاعة والعبادة فى رغبة ورهبة حسب نواميس معينة وبذلك يشمل هذا التعريف الدين السماوى والدين الوضعى والى هذا الاتجاه يذهب الدكتور محمد عبد الله دراز بقوله « الدين هو الاعتقاد بوجود ذات او ذوات غيبية لها شعور واختيار ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الانسان اعتقادا من شأنه ان يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة وفى خضوع وتمجيد » والى هذا الاتجاه ايضا يذهب الدكتور محمود مزروعة والفيلسوف الالمانى ارنست شلاير ماجز .

- اما الفريق الثانى فهو فريق يبالغ فى حذف مبدأ الالهوية من الديانة . فالديانة عندهم تقوم اساسا على مبدأ اخلاقى بحت خالى من التاليه وهذه الفرقة يمثلها رجلان من علماء الاجتماع والآثار وهما اميل دور كايم الذى يقول : الدين هو مجموعة متساندة من الاعتقادات والاعمال المتعلقة بالاشياء المقدسة : تضم اتباعها فى وحدة معنوية تسمى الملة .

اما الثاني فهو سسالمون ريناك الذى يعرف الدين بانه مجموعة من الموعات التى تقف حاجزا امام الحرية المطلقة لتصرفاتنا .

وهذا الفريق من الباحثين يبالغ فى حذف فكرة الاله الخالق اللا نهائى ذاتا ومكانا ولا يحيط به التصور بل يذهبون الى وجوب ابعاد هذه الفكرة وصحتهم على مذهبهم هذا ان فى الشرق اديانا كثيرة مثل الكونفشيوسية والبوذية تقوم على اساس اخلاقى بحت خالى من تاليه اله ويرى هذا الفريق ان الذين الهوا بوذا أو كونفوشيوس اناس مبتدعون خارجون عن الفهم السليم لدينهم الذى يعتنقونه .

ـــ اما الفريق الثالث فانه يرى ان الدين لا يكون الا وحيا ياتى الى رسل مؤيدون بالمعجزات .

يقول د . مصطفى عبد الرازق فالدين لا يكون الا وحيا من الله الى انبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم ائمة يهدون بأمر الله . كما يتجه نفس الاتجاه الامام محمد عبده بقوله « ان الدين هنا هو خلوص السريرة للحق وقيام النفس بصالح العمل وهو ما كان يدعو اليه صلى الله عليه وسلم وسائر اخوانه الأنبياء » .

وتبعهم فى القول بهذا الدكتور محمد عبد السلام بقوله « والذى نراه وفق ما تمليه عليه عقيدتنا ان الدين لا يكون الا وحيا من الله سبحانه وتعالى الى رسله الذين يختارهم من عباده ويبعثهم ائمة يهدون بأمره » .

فالدين عند هذا الفريق هو الدين الدين الالهى الشامل لنظام الأسرة والمجتمع والدولة وليس فقط طقوسا دينية ولا كهنوتية بل هو نظم كاملة للروح والجسد والدنيا والآخرة .

والحقيقة أننى ارجح الرأى القائل بان الدين يشمل كل الديانات السماوية وتلك التى تتخذ معبودا غير الله استنادا الى قوله تعالى : ((**لكم دينكم ولى دين**)) فالديانة هنا شاملة جميع الديانات التى كانت سائدة فى الجزيرة العربية فى تلك الفترة وعلى هذا الأساس فتعريف الدين يشمل الدين السماوى والدين الوضعى والدين السماوى هو الذى نزل من عند الله تبارك وتعالى على انبيائه ورسله صلوات الله عليهم اجمعين وهذا الدين من صنع الله وحدة فلا يد للانسان فيه ايا كان ذلك الانسان .
والدين السماوى يشتمل على اربعة مقومات اساسية :

١ — مصدر هذا الدين وهو الله . فالدين السماوى هو من عند الله « **الحمد لله الذى انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا** » . (الكهف : ١) .

٢ — وسيلة الايصال وهو الوحى « **انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس هارون وسليمان وآتينا داود زبورا** » (النساء : ١٦٣) .

٣ — الموحى اليهم هم الرسل فهؤلاء الرسل لا يبلغون الا ما يوحى اليهم « **واتبع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين** » (يونس : ١٠٩) .

٤ — الموحى به هو الكتاب المنزل على الرسول .

وهذا الدين السماوى الذى يوحيه الله لأنبيائه واحد « لا يختلف فى الأولين والآخرين انه الاسلام الذى جاء به جميع الرسل عليهم الصلاه والسلام واختاره الله لعباده جميعا حيث حكم جل شأنه بذلك فى قوله تعالى : « **ان الدين عند الله الاسلام** » وحيث رضيه الله لأمة محمد ﷺ حيث يقول على لسان نبيه « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » .

هذا هو الدين السماوى أو الشرعى أما الدين الوضعى فهو من وضع البشر ومن اختراع العقل الانسانى وعلى هذا فهو ليس وحيا من عند الله تبارك وتعالى . فالدين الوضعى هو مذهب انسانى دعا اليه بعض الناس فدان به آخرون وقد نشأ الدين الوضعى فى أساسه كمذهب أخلاقى أو اجتماعى له فلسفته الخاصة التى يقوم عليها والتى تستمد دعائمها من البيئة وظروف المجتمع الذى نشأت فيه ومن مشاكله التى جاء هذا المذهب أساسا علاجا له . ولكى يتحول هذا المذهب الى دين وضعى لابد أن تتوافر له عوامل ذاتية فى المذهب نفسه وعوامل متعلقة بظروف الناس الذى نشأ المذهب بينهم .

ومن أهم العوامل الذاتية التى يجب أن تتوفر فى المذهب ليصبح دينا وضعيا أن تلمس تعاليم المذهب من الناس ادق أحاسيسهم وأن تكون

تعاليمه ذات صلة بمشاكلهم اا المجتمع الذى نشأ المذهب بينهم فيجب أن يكون لديهم الاستعداد الطبيعى لاعتناق هذا المذهب دينا وهذا ينشأ نتيجة الخواء والتخبط الدينى لدى هؤلاء الأفراد وتاريخ الأديان شاهد على أنه لم ينشأ دين وضعى أبدا فى صحوة من دين سماوى وانما كانت تنشأ هذه الأديان فى فترة ضعف الأديان السماوية نتيجة تحريف أصحابها لها . والدين الوضعى يتعدد ويتكثر وذلك أمر طبيعى لأنه وليد العقل الانسانى والأفكار البشرية أما الدين السماوى فلا تعدد ولذلك كان الدين السماوى واحد وان تعدد الداعون اليه وهذا الدين الواحد هو الاسلام حمله سيدنا ابراهيم وكان حنيفا مسلما وقبله حمله سيدنا نوح ثم حمله موسى ثم عيسى ثم ختم الله الرسالة بسيدنا محمد ﷺ فلا يهودية ولا نصرانية وانما الاسلام والاسلام فقط « **ان الدين عند الله الاسلام** » (آل عمران : ١٩) وهذا يعقوب الذى يدعى اليهود أنهم أتباعه لم يكن يهوديا وانما كان مسلما يدعوا الى الاسلام « **أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون** » (البقرة : ١٢٣) .

وموسى يدعو ربه قائلا : « **ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين** » (الأعراف : ١٢٦) ويروى القرآن عن عيسى « **فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون** » (آل عمران : ٥٢) .

أما ما يقال بصدد المفاضلة بين الأديان السماوية والأديان غير السماوية أن الأديان السماوية صادرة من الله عز وجل وهو الحق ولذلك فهى معصومة بخلاف الأديان الوضعية ، اذ هى صادرة عن الانسان وهو ملازم للنقص والقصور ، كما أن الأدان السماوية قادرة على هداية أتباعها وذلك لأن الله أعلم الناس جميعا بما يصلحهم ويفسدهم فهو العالم بدقائق العالم وخفاياه . فاذا أنزل دين لهداية الانسان فلا يمكن أن يدانيه نظام آخر يقوم على أفكار البشر .

من هنا كانت أهمية الأديان السماوية وضرورة التمسك والحرص عليها لهداية الانسان . والأديان السماوية جميعها تشترك فيما يتصل بجانب العقيدة ولقد كان حجر الزاوية فى دعوات جميع الأنبياء هو أفراد الله تعالى بالعبادة والتقديس .

وهناك فرق بين الدين السماوى والملة والنحلة ، فالملة اسم لجملة الشرائع والدين اسم لما عليه كل واحد من أهل الشرائع يقول الراغب الأصفهانى : الملة كالدين وهو اسم لما شرع الله تعالى لعباده على لسان

الأنبياء ليتوصلوا به الى جوار ربهم . ومن المجاز فى استعمال الملة بمعنى الطريقة المسلوكة ومنها ملة ابراهيم حنيفا واعتنق فلان ملة الاسلام وعلى هذا المجاز ، فالفرق بين الدين والملة أن الدين ما يكون عليه كل واحد من أهل الملة الواحدة وان الملة اسم لجميع الشرائع .

أما النحلة فقد وضع لها علماء الغرب اصطلاحا فقالوا : النحلة يراد بها مجموعة العقائد والعبادات والشعائر التى تخص شخصا بعينه ولكنهم أخطأوا يوم سحبوا هذا التعريف على الاسلام فقالوا الاسلام نحلة لأن النحلة من مواصفاتها الشخص الواحد أو الجماعة الواحدة فهى نظام لا يصح أن ينسحب على الجميع وبالتالى لا يجوز لهذه الجماعة أن ترفع عصاها على رؤوس الناس لتفرض عليهم نحلتهم الخاصة وأن صح لهم أن يبلغوها باللسان والدعوة والكلام ووسائل النشر العادية . وقد قصد علماء الغرب هذه التسمية وطبقوها على الاسلام ليفسحوا لأقلامهم المجال فى مهاجمة شريعة السيف التى اتخذها الاسلام وسيلة للدعوة فى ظروف محدودة فى الشريعة الاسلامية ومن المعروف أن الاسلام دين الله للناس كافة فهو اذن ليس نحلة بالمفهوم الذى وصفه علماء الغرب لمعنى نحلة فالنحلة استعمال ضيق للتعبير عن الحاق فرد أو جماعة بعقيدة معينة سواء كانت هذه العقيدة دينية أو غير دينية سواء كانت صحيحة أو غير صحيحة .

ثانيا : تعريف الوحى :

يقول ابن حجر : الوحى لغة الاعلام فى خفاء والوحى أيضا الكتابة والمكتوب والايماء والاشارة والتصويب شيئا بعد شىء وقيل أصله التفهيم وكل ما دللت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو اشارة فهى وحى .

ويقول البدر العينى : الوحى فى الأصل الاعلام فى خفاء قال الجوهرى : الوحى الكتاب وجمعه وحى الوحى أيضا الاشارة والكتابة والرسالة والالهام والكلام الخفى وكل ما ألقيته الى غيرك .

ويقول ابن منظور فى لسان العرب والرازى فى مختار الصحاح . ومحمد عبده فى الرسالة : الوحى الاشارة والكتابة والرسالة والكلام الخفى وكل ما ألقيته الى غيرك ويقال وحى للشىء المكتوب . وهذه المعانى قد استعملها الشعراء د أشعارهم وأهل اللغة فى كلامهم ومحاوراتهم .

أما الفيروز آبادى فى قاموسه فقد زاد : والصوت يكون فى الناس وغيرهم . هذه هى معانى الوحى فى اللغة اذا أخذناها من الناحية اللغوية وحدها غير أن الكثير من اللغويين كالزمخشرى فى الأساس والراغب فى المفردات ذكروا أن الوحى يطلق أيضا على ما يوحيه الله الى أنبيائه بل قد

نص بعضهم على غلبة استعماله في هذا المعنى . يقول صاحب المصباح المنير بعد نقل المعانى السالفة الذكر لكلمة الوحى ثم غلب استعمال الوحى فيما يلقى الى الأنبياء اما البدر العينى فقد ذكر ان الوحى قد يطلق ويراد به اسم المفعول يعنى الشىء الموحى به الذى يفهمه الانسان من اية وسيلة يحصل بها التفهيم كاستماع كلام من غير معاينة كسماع كلام الله او بالقاء فى الروح او بالهام أو يكون ذلك برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع صوته كتبليغ جبريل كلام الله ولابن حجر فى فتح البارى كلام قريب من هذا المعنى .

اما الوحى فى اصطلاح الشريعة فقد ذكر البدر العينى انه كلام الله على انبيائه .

وهذا تعريف يتناول ما نزل على الرسل من كتب الله ثم يتناول به الى الرسل الذين لم يكن معهم كتب كآدم ونوح واسماعيل وسليمان فانهم كانوا مبلغين لرسالات وليس معهم كتب ثم يتناول اخيرا ما اوحى به الى الأنبياء الذين لم تكن لهم كتب ولا كانوا مكلفون بتبليغ رسالة جديدة بل انباهم الله بشرائع سابقة فكانوا يتبعونها ويجددون الدعوة بها كيوشع وصموئيل ونحوهما من انبياء بنى اسرائيل فانهم كانوا على شريعة موسى الى عهد عيسى عليهم جميعا صلوات الله وسلامه . والبدر العينى قصر الوحى الشرعى هنا على كلام الله فقط .

اما الامام محمد عبده فيعرفه تعريفا اشمل بقوله « بانه عرفان يجده الشخص فى نفسه مع اليقين بانه من قبل الله بواسطة أو بغير وساطة والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق بينه وبين الالهام فان الالهام وجدان تستقينه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين اتى وهو اشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور .

اذن فالوحى فى اللغة هو الاعلام فى خفاء والاشارة والكتابة والاسراع والالهام والكلام الخفى . ففى معنى الاعلام فى خفاء قال لبيد : فمدافع الريان عرى رسمها خلقا كما ضمن الوحى سلامها .

وفى وحى الاشــــارة قول الشـــاعر :

نظـــــرت اليهـــا نظـــرة فتحيـــرت   دقائق فكــــــرى فى بديع صــــــفاتها
فاوحى اليها الطرف انى احبهـــــــا   فاثر ذلك الـــــوحى فى وجناتهـــــا

وجاء فى القرآن الكريم « **فاوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشـــيا** » (مريم : ١١) ببمعنى فالقى ذلك اليهم ايماء أى اشارة اليهم اشارة خفية سريعة ولم يتكلم . وفى معنى الكتابة قول رؤبة .

كأنــه بعــد ريــاح تدهمــه   ومر شعنــات الدجــون تثمــه

انجيل احباروحى منمنة .

وفى المعنى الالهــام قوله عز وجل « **واذ اوحيت الى الحــواريين ان آمنوا** » (المائدة : ١١١) . أى القيت اليهم علم ذلك الهاما .

وفى معنى الكلام الخفى قول بن ذؤيب :

فقــال لهــا وقــد أوحت اليــه   الا الله امــك مــا تحيــف

أما الوحى شرعا فهو نوع خاص من تكليــم اللهلخلقــه ويكون ذلك التعليم بوسائل مختلفة وطرق شتى يتعرض لها من أوحى اليهم ويكــون فى الغالب نتيجة هذا التعلم كتب مقدسة . والله أعلم .

الفصل الأول

الألوهية فى ضوء الفكر اليهودى

اليهودية كأى دين سماوى تشتمل على أمرين أساسين عقيدة وشريعة . والعقيدة هى الأمور التى تتعلق بالقلب والتى تكون تصديقا بالجنان واقرارا باللسان من الايمان بالله واليوم الآخر والتصديق بالملائكة والرسل والكتب .

واليهودية فى ذلك لا تختلف عن اى دين آخر فقد جاءت **بالايمان** بالله والتصديق بوجوده واثبات الوحدانية له واختصاصه جل شانه بالعبادة وعدم الاشراك به « **وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لا اله الا انا فاعبدون** » (الأنبياء : ٢٥) .

فالرسل جميعا دعوتهم واحدة وهى الوحدانية لله وعبادته والديانة اليهودية تؤكد الايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وما فيه من حساب او عقاب وثواب « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** » (الشورى : ١٣) . وهذه الآية تفيد بأن عقيدة سيدنا محمد ﷺ هى عقيدة الامم السابقة التى شرعها الله ومنهم موسى عليه السلام ولما كان الله قد أوجب علينا الايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، فلابد أن تكون العقيدة اليهودية التى جاء بها موسى مشتملة على الايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، وما زالت التوراة التى بين ايدينا حافلة بما يثبت ان الله واحد لا شريك له ، وسندرس هنا الالوهية كما تصورها كتبهم المحرفة .

الالوهيـــة :

ان الدارس للتوراة يتضح له ان الله عند اليهود بالصفات التالية :

١ ــ ان الله واحد لا شريك له :

« اسمع يا اسرائيل الرب الهنا رب واحد » (تث : ٤)« الرب هو الاله ولا آخر سواه » (تث : ٣٥) .

وقال داود « يا رب ليس مثلك ولا اله غيرك » (١ خب ١٧ . ٢٠) .

وقال حزقيا « يا رب الجنود اله اسرائيل الجالس فوق الكروبيم انت هو الاله وحدك (١ ش ٣٧ ١٩) .

وقال نحميا « انت هو الرب وحدك » (نح ٩ : ٦) .

وفى الملوك الثانى « ايها الرب اله اسرائيل الجالس فوق الكروبيم انت هو الاله وحدك » (٢ مل ١٩ : ١٦) .

فالله فى نظر اليهود كان ولم يكن معه وانه حين اتجهت ارادته الى ظهور العالم خلق الكائنات المختلفة وحده دون ان يكون له معين او شريك .

٢ — الله لا يرى ولا يقدر احد ان يراه :

قال موسى « ارنى مجدك فقال احيز كل قدامك وانادى باسم الـرب قدامك واتراءف على من اتراءف وارحم من ارحم . وقال لا تقدر ان ترى وجهى لأن الانسان لا يرانى ويعيش » (خر ٣٣ : ١٨ : ٢٠) . « انت الله محتجب » (١ ش ٤٥ : ١٥) .

٣ — الله ليس كمثله شيء:

يقول داود « لذلك قد عظمت ايها الرب الاله لأنه ليس مثلك وليس اله غيرك (٢ صن : ٧ : ٢٢) ويقول ايضا « وبرك الى العلياء يا الله الذى صنعت العظائم يا الله من مثلك » (مز ٧١ : ١٠١) .

هكذا يقول الرب ملك اسرائيل وناديه رب الجنود الأول وانا الآخر ولا اله غيرى ومن مثلى ينادى » . (١ ش ٤٤ : ٦ : ٧) .

يقول الرب « لا يسكن هناك انسان ولا يتغرب فيها ابن آدم هو ذا يصعد كاسد من كبرياء الأردن الى مرعى دائم لأنى اغمز واجعله يركض عنه . فمن هو منتخب فاقيمه عليه لأنه من مثلى ومن يحاكمنى ومن

هو الراعى الذى يقف امامى » (١ ر ٤٩ : ١٩) .

٤ — الله لا يحده مكان ولا زمان :

« العلى الله من قريب يقول الرب ولست الها من بعيد اذا اختبا انسان فى اماكن مستترة افما اراه انا يقول الرب . اما املا انا السموات والأرض يقول الرب » (١ ر ٢٣ : ٢٣ : ٢٤) . ويقول داود « ابن اذهب من روحك ومن وجهك اين اهرب ان صعدت الى السـموات

فانت هناك وان فرشت فى الهاوية فها انت ان اخذت جناحى الصبح وسكنت فى اقاصى البحر فهناك أيضاً تهدينى يدك وتمسكنى يمينك »
(مز ١٣٩ — ٧ : ١٢) .

٥ — الله قادر على كل شيء :

يقول الله « انا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب بانى الاله القادر على كل شيء (حز ٦ : ٢) .

٦ — الله عظيم وقوى وجبار :

يقول ارميا « لا مثيل لك يا رب عظيم انت عظيم اسمك فى الجبروت»
(ار ١٠ : ٦) .

٧ — الله رؤوف :

« الرب اله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الاحسان والوفاء »
(خر ٣٤ : ٥) .

٨ — الله قديم :

« فى البدء خلق الله السموات والأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه » (تك ١ : ١ : ٢) .

٩ — الله حى :

« انظروا الآن انا انا هو وليس اله معى أنا أميت واحى سحقات وانى اشفى وليس من يدى مخلص انى ارفع الى السماء يدى واقول حى انا الى الأبد » (تث ٣٢ : ٣٩) .

١٠ — الله متكلم :

« اذ تحب الرب الهك وتسمع لصوته » (تث ٣٠ : ٢٠) .

وهكذا جاءت اليهودية بالايمـــان بالله والتصـــديق بوجوده واثبات الوحدانية له واختصاصه جل شانه بالعبادة وعدم الاشراك به ولكن الأمر لم يستمر على هذا النمط من القوة والاستقامة فايدى التحريف والتبديل ادخلت فى التوراة ما لم يكن فيها وصورت الاله صورا لا تليق بالالوهية ووصفته بصفات لا يرتضيها مؤمن ولا يطمئن اليها عاقل وإن لم يكن له دين .

ولنبحث الآن فى الصفات التى ادخلها اليهود على الههم يهوه .

(ا) التجسيد :

الذات العلية فى كتبهم المحرفة صورة مجسمة متصفة بكثير من صفات الحوادث بل الكثير من صفات النقص وغـــير مختلفة اختـــلافا كبيرا عن الخلق فى طبيعتها ومسلكها مما دعى الشهرستانى الى القول: « اطلق اليهود على الاله يهوة الصفات البشرية واتخذوا من اسفارهم دليلا على ما يوحى بالتجسيم والتشبيه ليستدلوا على ان الههم جسم وقد امتلأت التـــوراة بكل ما استندوا اليه فى دعواهم بان الله جسم وانه ذو صورة انســـانية وبألفاظ توحى وتشير الى التشبيه والتجسيم مثل الصورة والمشـــابهة والتكلم جهرا والرؤية وطلوع الله فى السحاب والكتابة والاستواء وخـــلق آدم على صورته وظهور نواجزه من كثرة الضحك وبكائه على طوفان نوح حتى رمدت عيناه . فالتوراة تسند الى الله الصفات التالية :

١ ــ تسند التوراة الى الله اوصاف الانسان وصفاته فالله له فروة راس وله شعر وهو يلبس خوذة على راسه وله جسد يلبس عليه الملابس وله اذن وعينان وانف يصعد منها الدخان وفم يخرج نارا وله رجلان وشفتان ولسان واصابع واحشاء وله قلب يتأذى وهو يتمثـــل فى كلامه لموسى رجلا مثله وهو يبكى ويضحك ويحزن ويرضى ويخدع . يقول اشعيا عن الله : « لبس البر كدرع وخوذة الخلاص على راسه ولبس ثياب الانتقام كلباس » (ا ش ٥٩ : ١٧) ويقول دانيال : « لباسه ابيض كالثلج وشعر راسه كالصوف النقى » دا ٧ : ٩) . « دعوت الرب والى الهى صرخت فسمع من هيكله صوتى وصراخى تدامه داخل اذنيه فارتجت الأرض وارتعشت اسس الجبال وارتجت لأنه غضب صعد دخان من انفه ونار من فمه اكلت جمر اشتعلت منه طاطا السماء ونزل وضباب تحت رجليه » (مز ١٨ : ٦ : ٩) .

هوذا اسم الرب يأتى من بعيد غضبه مشتعل والحـــريق عظيم . شفتاه ممتلئتان سخطا ولسانه كنار آكلة ونفخته كنهر غامر يبلغ الى الرقبة » (اش ٣٠ : ٢٧ ، ٢٨) .

« الرب فى هيكل قدسه الرب فى السماء كرسيه . عيناه تنظران اجفانه تمتحن آدم » (مز ١١ : ٤) .

« هوذا عين الرب على خائفيه الراجين رحمته » (مز ٣٣ : ١٨) .

« ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » (خـــر ٣٣ : ١١) .

« فحزن الرب انه عمل الانسان فى الأرض وتأسف فى قلبه » (تك ٦ : ٦) .

« فقلت آه يا سيد الرب حقا انك خداعا خادعت هذا الشـــعب » (ارميا ٤ : ١٠) .

« وكما فرح الرب لكم ليحسن اليكم ويكثركم » (تث ٢٨ : ٦٣) .
« فتنسم الرب رائحة الرضا » (تك ٨ : ٢١) .

« ورأى الرب ان شر الانسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصـــور افكار قلبه انما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الانســـان فى الأرض » (تك ٦ : ٥ ، ٦) .

« فحمى غضب الرب على موسى وقال اليس هارون اللاوى اخاك » (خر ٤ : ١٤) .

« فرأى الرب ورذل من الغيظ بنيه وبناته » (تث ٣٢ : ١٩) .

٢ ـــ احلوا الله فى مكان معين محدد بحيث يقف الانسان أمامه أو خلفـــه أو عن يمينه أو يساره أو تحته فالله كان يمشى أمامهم وكان يعيش وسطهم وكان ينزل او يصعد او يبعد .

« وكلم الرب موسى قائلا كلم بني اسرائيل ان يأخذوا لى تقدمة من كل من يحثه قلبه تأخذون تقدمتى وهذه هي التقدمة التى تأخذونها منهم . ذهب وفضة ونحاس واسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش ومحمرة جلود تخس وخشب سنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسحة وللبخور العطر وحجارة جزع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة . فيصنعون لى مقدسا لاسكن فى وسطهم » (خر ٢٥ : ١ : ٨) .

« فى سنة وفاة عزيا الملك رأيت السيد جالسا على كرسى عالى ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل . السرافيم واقفون فوقه لكل واحد ستة أجنحة . باثنين يغطى وجهه وباثنين يغطى رجليه وباثنين يطير وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس » (ا ش ٦ : ١ : ٣) .

« أما ابراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب » (تك ١٨ : ٢٢) .

« وقال فاسمع اذا كلام الرب قد رأيت الرب جالسا على كرسيه وكل جنود السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره » (ا مل ٢٢ : ١٩).

« وجها لوجه تكلم الرب معنا فى الجبل من وسط النار انا كنت واقفا من الرب وبينكم فى ذلك الوقت لكى أخبركم بكلام الرب » (تث ٥ : ٤ : ٥) .

« وصلى حزقيال أمام الرب وقال أيها الرب اله اسرائيل الجالس فوق الكروبيم » (٢ مل ١٩ : ١٥) .

يقول سليمان للاله : « فاسمع أنت من السماء مكان سكناك واغفر واعمل واعط كل انسان حسب كل طرقه كما تعرف قلبه لأنك انت وحدك قد عرفت قلوب كل بنى البشر » (ا مل ٨ : ٣٩) .

« وكان الرب يسير أمامهم فى عمود سحاب ليهديهم الطريق وليلا فى عمود نار ليضيء لهم لكى يمشوا نهارا وليلا ولم يبرح عمود السحاب نهارا أو عمود النار ليلا من أمام الشعب » (خر ١٣ : ٢٠) .

وتظهر أسفار التلمود أيضا اله اسرائيل متصفا بكثير من صفات الحوادث وصفات النقص فيذكر التلمود فيما حكاه ابن حزم(١) :

« إن سفر من أسفار التلمود يسمى سفر توما قد وصف جبهة خالقهم وعظم مساحتها فقال ان أعلاها الى أنفه خمسة آلاف ذراع وأنه قد جاء فى سفر آخر من أسفار هذا الكتاب يقال له سيادر ياشيم أن فى رأس خالقهم تاجا فيه ألف قنطار ذهب وفى أصبعه خاتم تضيء منه الشمس والكواكب » .

وجاء فى احد اسفار التلمود ايضا : « ان رجلا اسمه اسماعيل كان اثر خراب بيت المقدس سمع الله تعالى يئن كما تئن الحمامة ويبكى وهو يقول الويل الويل لمن اخرب بيته وضعضع ركنه وهدم قصره . ويلى على ما اخربت بيتى من بنى وبناتى قامتى منكسة حتى ابنى بيتى وارد اليه بنى وبناتى فلما شعر الله بوجود اسماعيل بجواره اخذ بثيابه وقال له اسمعتنى يا بنى اسماعيل ؟ قال لا يا رب فقال الرب يا ابنى يا اسماعيل بارك على فباركت عليه ومضيت » .

فالطبيعة اليهودية بشكل عام اقرب الى المادية منها الى الروحية واميل الى التجسيد منها الى التجريد . وقد انعكس ذلك على فكرتهم عن الله فلم يستطيعوا ان يتصوروه كائنا ساميا منزها عن المادة ولوازمها فى اى فترة من تاريخهم ففى عصر الرسول ﷺ روى لنا عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما ان اليهود جاؤوا الى الرسول ﷺ ومعهم كعب بن الأشرف فقالوا يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله فغضب النبى ﷺ فنزل قول الله : ((**قل هو الله احد**)) . فلما تلاها قالوا له صف لنا ربك كيف عضده وكيف ذراعه فغضب اشد الغضب فاتاه جبريل بقوله : وما قدروا الله حق قدره .

الا يدل ذلك على ان اليهود جبلوا على المادية البحتة مما دفعهم دائما الى طلب اله مجسم يلمسونه بايديهم ويبصرونه باعينهم ولذلك جاء رد الله عليهم : قل هو الله احد الله الصمد فالأحدية تنافى الجسمية التى توهمها اليهود فهو منزه عن التركيب فى ذاته وماهيته وقوله تعالى الله الصمد اشارة الى نفى الأضداد والانداد والشركاء والأمثال .

واننى لا ارى ما يراه احد المفكرين ان ما ورد فى التوراة من المتشابهات اى المحتملة لأكثر من معنى فهى ترد الى الآيات المحكمة لئلا يلزم التناقض والاختلاف فى كلام الله . ولذلك نجده يؤول كل الآيات المتضمنة التجسيم والتشبيه ويردها الى المحكم من آيات التوراة ونجده يحمل هذه الآيات من المعانى اكثر مما تحتمل فهو مثلا يقول عما جاء فى سفر الخروج الاصحاح الخامس والعشرون من البند الواحد الى الثامن والى غيرها من الآيات التى تحدد للاله مكانا يقف الانسان امامه او خلفه ... الخ . بان هذه الآيات يوحى ظاهرها ان اليهود صنعوا مكان لله ليقيم وسطهم فهذه آيات متشابهات ويجب ان يرد الى الآيات المحكمات التى تنفى المكان عن الله مثل قول اشعيا « هكذا قال الرب السموات كرسى

والأرض موطىء قدمي . أين البيت الذي تبنون لي واين مكان راحتي وكل هذه صنعتهـا يدي » (٦٦ : ١ : ٢) . ويفسر ما جاء في سـفر الخروج « وكان عمود السحاب اذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عنـد باب الخيمة ويتكلم الرب مع موسى فيرى جميع الشعب عمود السـحاب واقفا عند باب الخيمة ويقوم كل الشعب ويسجدون كل واحد في باب خيمته ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » (خر ٣٣:٩:١١). فيقول : « وواضـح من هذا النص أن الله كان يكلـم موسى في خيمـة الاجتماع فهل كان الكلام في خيمـة الاجتماع وجها لوجـه كما هو ظاهر النص . أم أن المراد من النص هو تأكيد التوراة على أن موسى كان يفهم كلام الرب بوضوح وجلاء . وما كانت رهبة الله تحول بين فهم موسـى لكلام الله واضحا ؟ ان المراد من النص حقا هو تأكيد التوراة على أن موسى كان يفهم كلام الرب بوضوح وجلاء . اذ لو كانت التوراة تريد ظاهر الكلام لـ كانت تنص على قول الله لموسى « لا تقدر أن ترى وجهي لأن الانسان لا يراني ويعيش » (خر ٣٣ : ٢٠) .

وما ذهب اليه هؤلاء هو ما ذهب اليه مفسروا التوراة بقولهم : ليس معنى وجها لوجه ان موسى رأى وجه الله ولكن هذه الكلمات تعني الشركة المباشرة القريبة مع الله والى درجة لم تتح لانسان آخر . لقد كان الاعلام للآخرين عن طريق الرؤى والألغاز وأما موسى فقد كان فكر الله واضحا له وضوح فكر الانسان اذ يخاطب صديقه الانسان .

وهذا يتعارض تماما مع دلالة النص الظاهري وتأويل يخرج بالنص من معناه الحقيقي والا فما معنى قول الله في سفر الخروج « ان كان منكم للرب فالبرؤيا استعلن له وفي الحلم اكلمه وأما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي فما الى فم أتكلم معه لا بالالغاز » (عد ١٢:٦:٧) . وما معنى قوله « ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » (خر ٣٣ : ١١) .

ولذلك نجد القس جردنر يقول عن موسى « كان الله يكلمه وجها لوجه كما يكلم الانسان صديقه أو صاحبه الحميم .

ثم يقولون ان ما ورد في التوراة أن يعقوب صارع الله كما ورد في سفر التكوين (تك ٣٢ : ٣٠) فالصراع كان مع ملاك من ملائكة الله وليس

مع الله ويفسر جميع كلمات الرب الواردة بالتوراة أن المقصود بها هو ملاك الرب نفسه وهذا كلام يتفق مع ما ورد فى التوراة بأن المقصود بالرب هو الله صراحة « ظهر الرب لابرام وقال له انا الله القدير » (تك ١٧ : ١) .

« ثم صعد من هناك فظهر له الرب فى تلك الليلة وقال انا اله ابراهيم أبيك » (تك ٢٦ : ٢٣) .

والمقصود بكلمة الرب هنا هو الله وليس ملاك الرب . والقائل بغير هذا يحمل الألفاظ اكثر مما تحتمل . بل ان علماء المسيحية ومنهم عوض سمعان يرى أن كلمة ملاك الرب الواردة فى التوراة تعنى الرب يقول « ان كلمة ملاك أو ملاك الرب ورد فى الكتاب المقدس مراد بها اسم الرب او الله فالاصطلاح ملاك الرب معناه المبلغ لرسائل الرب ولما كان هو خير من يقوم بتبليغ رسائله لأن كل ما عداه محدود والمحدود لا يستطيع أن يعلن اعلانا كاملا ذات أو مقاصد غير المحدود لذلك يحق أن يسمى الرب من جهة ظهوره لتبليغ رسائله ملاك الرب بمعنى المعلن لمقاصده أو المعلن لذاته أو بالحرى بمعنى ذاته معلنا أو متجليا لأنه لا يعلن ذات الله سوى الله .

ويقول سبينوزا ان « الكتاب يقل صراحة على أن الله قد تحدث بنفسه بعد أن نزل من السماء لهذا الغرض على جبل سيناء وأن اليهود تعودوا سماعه بل رآه كبارهم أيضا .

اما قوله بأنه يجب رد المتشابه الى المحكم حتى لا يكون هناك تناقض فى كلام الله فأقول له أن التناقض موجود فعلا فى التوراة وقد اثبته العلماء من جميع الأجناس . والاسلام ينفى فرية التجسيد نفيا قطعيا ولقد وصف القرآن الكريم الخالق سبحانه بأنه سميع وبصير ومتكلم ولكن السمع والبصر والكلام وغيرها ليست بآلة ولا جارحة ليست باذن ولا حدقة ولا لسان مما نعرف بل هى كلها من شئونه التى لا يعلمها سواه وهى قديمة بقدمه ولا يمكن لعقولنا أن تعرف بحقيقتها . والعقل كذلك ينكر تجسيد الذات الالهية ويرى أن انزال الله الى عالم الحس ازالة لهيبتها ودواعى الشوق اليها لأنه لن يتحقق للالهوية من تقديس واجلال الا اذا ظلت بعيدة عن عالم الحس . واذا

كانت الفلسفة الحديثة تعتمد اعتمادا كليا على العناصر المادية فى بناء هيكلها وتذهب مذاهب العلم فى استخدام التجـربة والاختبـار الحسى لتصوير مقولاتها ومع هذا فانها فى مقـام الالوهيـة لم تجـد بدا من أن ترتفـع بفكرة الاله عن المـادة وملابسـاتها وان تؤمن بالاله رمزا للكمال .

(ب) الله خادع ومضلل ويامر بالسرقة :

وصفت التوراة فى سفر التكوين الاصحاح الثالث الله تعالى عما يافكون بأنه يخدع عباده ويضللهم وبأنه يجهل الغيب ولا يدرك منه شيئا فزعموا انه نهى آدم وحواء أن يطعما شجرة المعرفة واخفى عنهما حقيقتهمـا وعاقبة الأكل منها وحذرهما ان يقرباها بدعوى ان الاكل منها يفضى الى الفناء وهو يعلم أن الاكل منها يفضى الى المعرفة ونضج العقل والفكر ولكنه كان يضللهما ليبقيا جاهلين فلا يشـاركاه فى صـفة المعرفة ثم أغراهما الشيطان فاكلا من الشجرة فبدت لهما سوءتهما فادركا انه لا يليق بهما ولا بربهما أن يلقياه وهما مكشوفا العورتين ولهذا لما سمعا صوته وهو مقبل عليهما اختفيا وجعلا يخفيان عورتيهما بورق من ورق الجنة فناداهما ربهما وسألهما فعرف أنهما قد عصياه وأكلا من شجرة المعرفة فلم يكن بديلا أمام الله الا أن يطردهما من الجنة حتى لا تمتد يداهما الى شـجرة الخلد فيضـف الانسان الى صفة المعرفة صفة الخلد وهى أعلى صفات الله .

انهم يفترون على الله عز وجل انه خادع ومضلل نهى آدم عن الأكل من شجرة المعرفة حتى ينفرد هو وحده بالمعرفة فلما خالفاه واكلا منها عاقبهما بطردهما من الجنة قبل أن ياكلا من شجرة الخلد ويشاركاه فى صفة الخلود وهى أسمى صفاته ولا ريب أن هذا كله كذب وافتراء وضلال يموج بعضه فى بعض فالحق ما ذكره القرآن الكريم فى قصة آدم وحواء فى عدة مواضع وليس فى واحد منها كلمة تنافى علم الله وقدرته وارادته وتنزهه عما افترى اليهود . ومعاذ الله أن يخلق آدم وحواء ثم يحـاول أن يخدعهما ليصرفهما عن المعرفة التى يختص بهـا فان معرفة الانسان قطرة من بحر المعرفة الالهية وحاش لله أن يغار منهما وينفس عليهما هذه المعرفة فيطردهما من الجنة مخافة أن يشاركاه فى صفة الخلود لأنه لو اراد أن يحول بينهما وبين المعرفة لفعل ولو اراد لهما الجنة لحقق ما اراد ولم ينشأ الفساد عن طردهما من الجنة بل هكذا

خلقهمـــا الله للحياة وللموت وشاء ان يهبطا الى الارض ليعمرها نسلهما ولحكمة لا يعلمهاالا الله . اضف الى ذلك فالله يأمر اليهود بالسرقة اذا أرادوا أن يسرقوا فقد جاء فى سفر الخروج « بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بينكم وبناتكم فتسلبون المصريين » .

(خر ٣ : ٢٤)

ويعلق الأستاذ/محمد عـــزة دروزة على هذا النص بقـــوله « ومهما كان من أمر فان تسجيل هذا الخبر بهذا الاسلوب يدل على ما كان وظل يتحكم فى نفوس بنى اسرائيل من فكرة استحلال أموال الغير وســـلبها بأية وسيلة ولو لم تكن حالة حرب ودفاع عن النفس كما انه كان ذا أثر شـــديدبدون ريب فى رسوخ هذا الخلق العجيب فى ذراريهم ثم من دخل دينهم من غير جنسهم » .

(ج) الله ناقص العلم :

وصف اليهود الله بانه ناقص العلم محـــدود المعرفة محتـــاج الى ارشادهم فهو يطلب منهم أن يميزوا بيوتهم بدماء الكباش لكى لا يخطىء فى انزال الضربات عليهم دون أعدائهم فيقول الله « ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر » (خر ١٢ : ١٢ : ١٣) .

ولقد ناقش الله ابراهيم حينما هم بتدمير سديم وعمورة وبين له أن بعض أهلها صالحون لا يستحقون الدمار وانه ليس من العدل أن يعـــاقب البرىء بذنب المسىء ثم قام الرجال من هنـــاك وتطلعوا نحو سدوم . وكان ابراهيم ماشيا معهم ليشيعهم فقال الرب هل أخفى عن ابراهيم ما أنا فاعله . وابراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض . لأنى عرفته لكى يوصى بنيـــه وبيتـــه من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعلموا برا وعدلا لكى يأتى الرب لابراهيم بما تكلم به . وقال الرب ان صراخ ســـدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جدا . انزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتى الى والا فاعلم . وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم وأما ابراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب . فتقدم ابراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم عسى أن يكون خمسون بارا فى المدينة أفتهلك المكان ولا تصفح عنهم من أجل الخمسين

بارا الذين فيه حاشا لك ان تفعل مثل هذا الأمر ان تميت البار مع الاثيم فيكون البار كالأثيم حاشا لك اديان كل الأرض لا يصنع عدلا فقال الرب ان وجدت في سدوم خمسين بارا في المدينة فانى اصفح عن المكان كله من اجلهم . فأجاب ابراهيم وقال انى قد شرعت أكلم المولى وانا تراب ورماد . ربما نقص الخمسون بارا خمسة اتهلك كل المدينة بالخمسة فقال لا اهلك ان وجدت هناك خمسة واربعين . فعاد يكلمه ايضا وقال عسى أن يوجد هنـــاك اربعـــون لا أفعــل من اجل الأربعين » (تك ١٨ : ١٦ : ٣٠) .

كما جاء في التلمود انه لا شـــغل لله في الليـــل غير تعلم التلمود مع الملائكة .

(د) الله ضعيف القدرة وكثير ما يخطىء :

فالله في نظرهم تنزه عما يافكون ضعيف المقدرة يتعب كما يتعب البشر لانه بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع وكان يوم سبت فبارك هذا اليوم وحرم العمل فيه . « وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذى عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذى عمله وبارك اليوم السابع وقدسه لأنه فيـــه استراح من جميـــع عمله » (تك ٢ : ٢) .

وعلى زعمهم هذا يرد الله تعالى بقوله : « **ولقد خلقنـــا الســـموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** » (ق : ٣٨) . أى لم يمسنا تعب حتى نحتاج الى الراحة . ومن أراجيفهم أن الله سبحانه وتعالى يخطىء كما يخطىء البشر ويندم على خطئه كما يندمون ويختشى لوم الناس فزعموا انه قال « وكان كلام الرب الى صموئيل قائلا . ندمت على انى قد جعلت شـــاول ملكـــا لأنه رجع من ورائى ولم يقم كلامى » (١ صم ١٥ : ١٠) .

« فندم الرب على الشر الذى قال انه يفعله بشعبه » (خر ٣٢ : ١٤) .

وجاء في التلمود ان الله ندم على تركه شعبه المختار في حالة تعاسة عندما كتب الذلة والمسكنة عليهم وصرح بهدم أورشليم » (٢) . أضف

الى ذلك فالتوراة ذكرت أن يهوة مولع بالتخريب « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها للصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها واذا دفعها الرب الهك الى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك التى اعطاك الرب الهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما (تث ٢٠ : ١٠ : ١٦) . كما جاء فى سفر اللاويين ان الله ظمآن الى الدماء مولعا بالقرابين وانه لا يرتضى بالقرابين الحيوانية وحدها بل لا بد من تقديم القرابين البشرية اليه .

وهذا تصوير بشع باطل ينم عن وحشية مسعورة تتلظى فى نفوسهم وتأبى الا أن تستعلن فى أفعالهم وفى بهتانهم . الذى افتروه على الله وتاريخهم غاص بوحشيتهم ومعابدهم كما يقول . ١ . دوزى فى كتابه الحضارة مخيفة جدا وهى مراكز تقع بداخلها جرائم القرابين البشرية . ويقول السير ريتشارد بورثون « ان التلمود يعين مناسبتين دوريتين ترضيان اله اليهود يهوه احداهما عيد الفطائر المزوجة بدماء البشر والأخرى احتفالهم بختان أطفالهم .

ان تصوير اليهود لله بانه متعطش الى الدماء والتدمير ـ اهو الا صدى لما فى أغوار نفوسهم الخبيثة المولعة بالدمار .

هذه هى صفات يهوه كما تصورها كتبهم المحرفة الها لهم وحدهم اضفوا عليه الكثير مما أملاه عليهم خيالهم المفعم بالآمال والآلام فوصفوه بصفات والبسوه باثواب تتلائم مع الأحوال التى كانت تغشاهم . فعندما كانوا يخترقون الصحراء فيهوه الها مقاتلا يكافح معهم . وعندما دخلوا أرض كنعان غزاة صاغ اليهود يهوه فى الصورة التى كانوا عليها فجعلوه الها صارما ذا نزعة حربية بالغة العنف لا يقسو على أعداء اليهود فقط ولكن يقسو على شعبه ويلعنهم ايضا « ولكن ان لم تسمع لصوت الرب الهك لتحرص ان تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التى انا أوصيتك بها اليوم تاتى عليك جميع هذه اللعنات وتدركك ملعونا تكون فى المدينة وملعونا تكون فى الحقل ملعونة تكون سلتك ومعجنك ملعونة تكون ثمرة

بطنك وثمرة ارضك نتاج بقرك واناث غنمك . ملعونا تكون فى دخولك وملعونا تكون فى خروجك . يرسل الرب اللعنة والاضطراب والزجر فى كل ما تمتد اليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعا من اجل سوء افعالك (تث ٢٨ : ١٥ : ٢٢) .

ويسترسل هذا السفر فى صب اللعنات من سل وحمى وغيرها مما جعل ول ديورانت يعلق على هذه اللعنات وغيرها بقوله : « ان هذه اللعنات لجديرة بأن تكون نماذج فى القدح والسب ولعلها هى التى اوحت الى الذين حرقوا الكفرة فى محاكم التفتيش الاسبانية او حكموا على سبينوزا بالحرمان ان يفعلوا ما فعلوا فاليهود كما يرى رينان الفرنسى جعلوا الاله يعيش عيشة مساكنة ومرافقة يجدونه مع كل خطوة من خطواتهم ومع كل نفس من انفاسهم وهذا ما قصد اليه زعماء اليهود وقادتهم لسوق هذا القطيع المعربد . بعصا الدين وتجميده داخل هذه القوالب الدينية حتى لا يشرد بعيدا عن الجماعة وحتى تتأصل له عادات وتقاليد يمكن ان تجمع الجماعة عليها ولا تتبدد شيعا واحزابا .

وقد اطلق اليهود على الههم اسم يهوه وهى الكلمة العبرانية المماثلة لكلمة لورد كما يقول سميث : لأن العبرية كانت تكتب بدون حروف علة حتى ٥٠٠ م ثم دخلت هذه الحروف فاصبحت كلمة ياهوفا فكلمة ياهوفا معناها سيد او اله ، اما زكى شنودة فيرى ان يهوه لفظ عبرى مشتق من اللفظ العبرى هيه او هوه الذى يفيد الوجود او الكينونة وبذلك يكون يهوه هو الكائن . ويقول مؤلفوا المدخل الى الكتاب المقدس : كان اليهود يخشون اسم الههم ولذا اختصروه بحروفه الساكنة كالأحرف الأربعة يمكن قراءتها بما معناه انا هو الكائن او انا الأزلى او انا من يأتى .

اما الأستاذ العقاد فيرى انه نداء لضمير الغائب وقد نودى بضمير الغائب توقيرا لأن موسى علم اليهود ان ينفعوا ذكره وان يكتفوا بالاشارة اليه . ويرى بعض الباحثين ان هذا الاسم يهوه ليس الا اسما لأحد ارباب المصريين لوجود هذا الاسم على الواح صلصالية يعود تاريخها الى حوالى ٢١٠٠ ق . م او انه اسما لأحد ارباب كنعان لوجود قطع من الخزف من بقايا العصر البرنزى (٣٠٠٠ ق . م) عليها اسم اله كنعان يهوا او يهوه ويستنتج من ذلك الباحثين ان اليهود اخذوا اسم الههم من الكنعانيين او المصريين . وهذا الاستنتاج فيه شطط

وتعسف فلا يعقل أن يكون اليهود عالة على غيرهم فى التعرف على اسم الاله المعبود وانني ارجح الرأى القائل من أن يهوه لفظ عبرى معناه الوجود او الكائن .

وسمت التوراة اله اليهود أيضا باسم الوهيم وهو الاسم الذى يوجد فى اقدم اسفار اليهود وخاصة المزامير من ٤٢ الى ٧٢ ولا سيما أيضا الفصل الأول من سفر التكوين . وباسم ادوناى أو أدونى أى الرب او السيد وقد نسب اليهود الى اسم ادونى بعض اسمائهم مثل ادونى صادق أى الرب عادل (يشوع ١٠ : ١ — ٢٧) وادونيا أى الرب هو الله (٢ صن ٣ : ٢) وباسم ايل وهذا الاسم غالبا ما يستعمل مع صفة مثل ايل عليون أى الله العلى (تك ٣٥ : ١١) وكان اليهود أحيانا يضيفون لفظ ايل فى آخر الاسم فيقولون اسرائيل أى الذى جاهد مع الله (تك ٣٢ : ٢٨) ولم يستطع اليهود فى أى فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد يهوه وكان اتجاههم الى التجسيم والتعدد واضحا فى جميع مراحل تاريخهم .

ولقد مرت عبادة يهوه فى ثلاثة مراحل رئيسية هى : —

١ — عبادة يهوه قبل بناء الهيكل :

ونبدأ هذه الفترة من عبادة يهوه عندما دعاهم موسى اليه وتنتهى فى بداية عهد داود . وهذه الفترة تشمل عصر يوشع ثم عصر القضاة الذين تزعموا اليهود لمدة نحو أربعمائة وخمسين سنة وكان يحدث أن يجتمع اثنان وثلاثة منهم فى وقت واحد ثم شملت هذه الفترة جزء من حكم الملوك وهو حكم شاول من سبط بنيامين وقد رسمه صموئيل آخر القضاة ثم أوائل فترة حكم الملك داود . وفى عهد موسى دعاهم موى الى عبادة الاله الواحد ولكن اليهود لم يستجيبوا له استجابة حقيقية وسرعان ما عبدوا العجل فى حياة موسى وتذكر التوراة قصة هذا العجل الذى عبدوه بعد أن تأخر موسى فى العودة اليهم وكيف أعدم موسى ثلاثة آلاف منهم عقابا لهم على عبادة هذا الوثن « ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير امامنا . لأن موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه . فقال هارون انزعوا اقراط الذهب فى اذان نسائكم وبنيكم وبناتكم واتونى بها . فنزع كل الشعب اقراط الذهب التى فى آذانهم

واتوا بها الى هارون . فاخذها من ايديهم وصوره بالازميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التى اصعدتك من ارض مصر . فلما نظر هارون بنى مذبحا امامه ونادى هارون وقال غدا عيد للرب . فبكروا فى الغد واصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب . فقال الرب لموسى اذهب انزل لانه قد فسد شعبك الذى اصعدته من أرض مصر زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به وصنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل » (خر ٣٢ : ١ : ٨) .

« وكان عندما اقترب — اى موسى — الى المحلة انه ابصر العجل والرقص فحمى غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما فى اسفل الجبل ثم اخذ العجل الذى صنعه واحرقه بالنار وطحنه حتى صار ناعما وذراه على وجه الماء وسقى بنى اسرائيل (خر ٣٢ : ١٩ : ٢٠) . وقال موسى من للرب فالى « فاجتمع اليه جميع بنى لاوى فقال لهم هكذا قال الرب اله اسرائيل ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب الى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد اخاه وكل واحد صاحبه وكل واحد قريبه . ففعل بنو لاوى بحسب قول موسى . ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل » (خر ٣٢ : ٢١ : ٢٨) .

والقصة كما رواها القرآن الكريم أن موسى عليه السلام بعد خروجه باليهود من مصر وذهابه الى طور سيناء وخروج موسى للقاء ربه خلف أخاه هارون نائبا عنه ولكن السامرى فى دهائه وخبث طويته استغل ما يتحلى به هارون من رحمة وتسامح ليجمع ما لدى القوم من حلى ذهبية ويخرج لهم عجلا جسدا له خوار ويفهم اليهود بان هذا هو الههم الذى جمعهم موسى على كلمته وباسمه خرجوا من مصر ولاقت الفكرة نجاحا لأن الوثنية ما زالت عالقة فى قلوبهم نتيجة للفترة الطويلة التى عاشوها فى مصر حيث ألفوا آلهة المصريين الوثنية ورأوا كيف كان المصريين يعبدوا العجل ابيس . اضف الى ذلك خيبة الأمل التى اصيبوا بها منذ عبورهم البحر الأحمر عندما لم يروا امامهم سوى الجبل وسال بعضهم بعض اين هذا الاله الذى حدثنا عنه موسى واقتنع اليهود بفكرة السامرى وعبدوا ذلك العجل من دون الله ولم يأبهوا لنصائح هارون واصموا آذانهم عن نداء الحق . فلما عاد موسى من ميقات ربه غاضبا

مدما اعلم بما حاكه السامرى لقومه فى غيابه والمؤامرة التى صرف بها اليهود عن عبادة ربهم ولقد لام موسى قومه على سوء صنيعتهم وعنفهم ولم يقبل الله توبتهم حتى قتلوا انفسهم وابتلى السامرى بحياة كلها تعاسة ربما كان فى الموت راحة منها فقضى حياته منعزلا بعيدا عن الناس .

ويصور القرآن الكريم هذه الحادثة بقوله : ((**واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون . ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون . واذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . واذ قال موسى لقومه يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم**)) (البقرة : ٥١ : ٥٤) .

((**ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون**)) (البقرة : ٩٢) .

((**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار الم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سقط فى أيديهم وراوا انهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى الى قومه غضبان اسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى . اعجلتم امر ربكم والقى الألواح واخذ براس اخيه يجره اليه قال ابن ام ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وادخلنا فى رحمتك وانت أرحم الراحمين ان الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين**)) .

(الأعراف : ١٤٨ : ١٥٢)

والباحثون يختلفون فى حقيقة هذا العجل الذى اقامه السامرى فبعضهم يراه من السبائك الذهبية التى تحولت الى جسد أو من السبائك الذهبية التى لم تتحول وبعضهم يراه عجلا حيا اشتراه لهم السامرى من بدو سيناء وكل فريق منهم له حجته القوية . كما اختلف الباحثون حول من عبد العجل من اليهود هل اليهود كلهم أو بعضهم فمنهم من يرى أنهم كلهم عبدوا العجل ما عدا هارون ومنهم من يرى أن عدد كثير من اليهود ومعهم هارون رفضوا عبادة العجل ونلاحظ أن التوراة اغفلت اغفالا تاما ذكر السامرى وهو راس الفتنة ثم نسبت جرائمه الى بنى كريم هو

هارون الذى احاطه الاسلام بهالة من التقــديس والاحترام . وبعد موت موسى عليه السلام وتولى يوشع ابن نون الحكم ودخوله ارض فلسطين قسم يوشع الأرض التى استولى عليها على الاسباط الاثنى عشر ثم مات يوشــع بعد ذلك فاخذ زعمــاء القبائل يجتمعــون وينتخبون رئيســا القبائل كلها وكان هذا الرئيس يسمونه القاضى وفى هذا العهــد عبـد اليهود بعل اله الكنعانيين فى كثير من قراهم وفى احــوال كثيرة اصبح للكنعانيين ولليهود معبد واحد به تمثال يهوه وتمثال بعل بل واصــبح يهوه ينادى بعل وعبدوا البلعيم والعشتارت (قض ١ : ٩) وآلهة آدام وآلهة صيدوم وآلهة مؤاب وآلهة بنى عمون وآلهة الفلسطينين .

اذن لم يكن يهوه هو الاله الوحيد الذى يعترف اليهود فى عهد القضاة به وان كانوا يجعلون يهوه دائما فى مقام فوق مقام كل الأرباب . وفى مطلع عهد الملوك ينص كتابهم المحرف ان زوجة داود كانت تعبد تماثيــل على صور البشر يرمز بها الى الله وهى الترافيم « فاخبرت داود ميكال امراته قائلة ان كنت لا تنجوا بنفسك هذه الليلة فانك تقتل غدا فانزلت ميكال داود من الكوة فذهب هاربا ونجا فاخذت ميكال الترافيم ووضعته فى الفراش ووضعت لبدة المعزة تحت رأسه وغطته بثوب . وارسل شاول رسلا لأخذ داود فقالت هو مريض . ثم ارسل شاول ليروا داود قائلا اصعدوا الى فى الفراش لكى اقتله فجــاء الرســل واذا فى الفراش الترافيم ولبدة المعزة تحت رأسه » .

(صى ١٩ : ١١ : ١٦)

٢ — يهوه مع الهيكل :

اما المرحلة الثانية فهى مرحلة ارتباط يهــوه بالهيــكل فان داود (١٠٠٤ / ٩٦٠ ق . م (أخذ تابوت العهد من بيت انبيا داب حيث ظل هناك منذ اعادة الفلسطيذين ونقله الى مدينة داود حيث اقام له هناك خيمة وضعه فيها وعين اللاويين لخدمته برئاســة صــادوق وابيا ثار الكاهنيين ثم جاء سليمان وبنى الهيكــل فى مدينــة داود (أورشــليم) وتركزت عقيدة بنى اسرائيل حول الهيكــل واعتبر اليهــود الهيكل مقر الههم يهوه وفى هذه المرحلة توحدت فيها العبــاداتاليهــودية وتمخضت ليهوه وحده وقد كان الهدف الذى قامت عليه هــذه الوحــدة الدينيــة والالهية هدفا دنيويا محضا حيث ان هذه الوحدة كانت تعنى فى المقــام الأول تثبيت دولة اليهود والمحافظة عليها . وفى هذه الفترة اختار اليهوه الهيكل مقرا لالههم وحدوه بمكان ينزل من مقامه ويقل من قدره . ولقــد

خص اليهود أنفسهم بيهوه ولم يسمحوا لغيرهم بعبادته او الدخول فى ديانته كما اعترف اليهود لغير اليهود بآلهة يعبدونها . وتذكر التوراة أن سليمان عليه السلام تزوج بألف امرأة وارتد باغوائهن فى آخر عمره الى عبادة الأصنام كما هو مصرح به فى الاصحاح الحادى عشر من سفر الملوك الأول . يقول ول ديورانت وعلى هذا فمع وجود الهيكل فى عهد سليمان كانت عبادة آلهة الأجانب منتشرة وينسب العهد القديم لسليمان نفسه انه اقام مذابح الالهة الخارجية التى كانت تعبدها زوجاته الأجنبيات(١) .

وتقول التوراة « فبنى مذبحا لعشتروت رجاسة الصيدونيين ولكموش رجاسة الموآبيين وملكوم كراهة بنى عمون » (٢ مل ٢٣ : ١٣ : ١٤) .

وقبل عهد الملك يوشيا كان الهيكل مملوءا بالمعبودات والأصنام التى تمثل بعل وملوك الشمس والقمر وغيرها وكان الشعب يسجد لها . وقد قام هذا الملك فدمر هذه الآلهة لاعادة الشعب لعبادة يهوه « وأمر الملك حلقيا الكاهن العظيم وكهنة الفرقة الثانية وحراس الباب الأول أن يخرجوا من هيكل الرب جميع الآنية المصنوعة للبعل ولكل أجناد السماء وأحرقها خارج أورشليم فى حقول قدرون وحمل رمادها الى بيت ايل » (٢ مل ٢٣ : ٤) .

وفى زمن حرقيال وفى أواخر ايام مملكة يهوذا كان يمكن أن يرى حتى فى الهيكل يهود كانوا يسجدون أمام الشمس مولين وجوههم شطر المشرق . ومن ذلك يتضح لنا أن اليهود طوال هذا العهد تمردوا على الله وعبدوا الآلهة الوثنية وحتى اذا حدث انهم عبدو الله فى فترات قصيرة من هذه المرحلة فانهم كانوا يعبدون الآلهة الوثنية معه . فلم يحدث قط أنهم عبدوا الله وحده أو عبدوه عبادة خالصة باعتباره الاله الأوحد .

٣ ــ يهوه بعد الهيكل :

بعد وفاة سليمان عليه السلام وقع نزاع بين أولاده على السلطة فانقسمت الدولة الى دولتين :

(١) مملكة الجنوب وتسمى مملكة يهوذا وبنيامين وبعض بنى لاوى

وعين ملكا عليها رحبعام واصبحت عاصمتها أورشليم وقد تعاقب عليها بعد رحبعام عشرون ملكا .

(ب) مملكة الشمال وتتكون من بقية الأسباط بزعامة برعام ابن سليمان وعاصمتها شكيم (نابلس) . وتسمى مملكة اسرائيل وتعاقب عليها بعد برعام تسعة عشر ملكا وفى عام ٧٢٢ ق . م استولى سرجون الثانى ملك اشور على مملكة اسرائيل فى الشمال واستولى فرعون مصر عام ٦٠٨ ق . م على مملكة يهوذا ثم استولى بعد ذلك على مملكة اسرائيل التابعة لبابل فغضب لذلك بختنصر ملك بابل وجهز جيشا غزا به مملكة اسرائيل وهزم فرعون مصر ثم استولى على مملكة الجنوب عام ٥٨٦ ق . م وبذلك اصبحت دولتى اليهود تحت الحكم البابلى ودمر مدينة أورشليم واحرق الهيكل وسواه بالأرض وبذلك قضى على مملكة يهوذا فى عام ٥٨٦ ق . م كما قضى على مملكة اسرائيل قبل ذلك فى عام ٧٢٢ ق . م .

ومن هنا تبدأ المرحلة الثالثة من مراحل عبادة يهوه وهى المرحلة التى صاحبت الأسر البابلى وتدمير الهيكل . فقد اصبح اليهود يعتقدون بعد تشتتهم أن يهوه فى كل مكان وتعد خطوة هامة فى تاريخ العقيدة اليهودية فانها رفعت الاله من أن يكون محدودا فى مكان لا يتعداه وتخطت به قيود التجسيم الى حد ما . وفى خلال الأسر البابلى هب اشعيا يتحدث عن اله واحد اله العالمين خالق الكون ورازق العباد . ويرجع الدكتور كامل سعفان قول اشعيا باله واحد اله العالمين بأنها ثمرة ثقافات مختلفة ادت الى مراجعة عقائدية فى مرحلة من مراحل حياتهم . أو هى قدر مما بقى من آثار انبياء اسرائيل مختلطا بكثير مما دخل عليها من ديانات وخرافات الشعوب التى نزلوا بها أو احاطت بهم .

ويتضح لنا من العرض السابق أن مسألة الألوهية عند اليهود سواء اتجهت للوحدانية أو التعدد لم تكن عميقة الجذور فقد كانت المادية والتطلع الى اسلوب نفعى فى الحياة من اكثر ما يشغلهم فاليهود لم يعرفوا الاله الحق فى اكثر تاريخهم وحتى فى المرحلة التى عرفوه فيها جعلوه الها خاصا بهم . « ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو

وسبعون من شيوخ اسرائيل ورأوا اله اسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق » (خر ٢٤ : ٩ : ١٠) .

« ما هذه الخيانة التى خنتم بها اله اسرائيل » (يش ٢٢ : ١٦) .

« فأجاب عالى وقال اذهبى بسلام واله اسرائيل يعطيك سؤالك الذى سألته من لدنه » (١ صن ١ : ١٧) .

« أنا اسير قدامك والهضاب امهد . اكسر مصراعى النحاس ومغاليق الحديد اقصف وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابىء لكى تعرف أنى أنا الرب الذى يدعوك باسمك اله اسرائيل » (أ ش ٤٥ : ٣) . وبذلك أصبحت الديانة اليهودية لا تبشر بنفسها ولا تدعوا غيرها للدخول فيها وأصبحت مثل الديانة الهندوكية ترفض قبول أى جماعة أخرى بها الا بعد مرور عدة أجيال ولما كان الرب هو ربهم وحدهم نهم بذلك وحدهم شعب الله المختار مميزين عن سائر الشعوب » ثم كلم الله موسى وقال له أنا الرب وأنا ظهرت لابراهيم واسحق ويعقوب بأنى الاله القادر على كل شىء وأما باسمى يهوه فلم أعرف عندهم . وأيضا اقمت معهم عهدى أن أعطيتهم أرض كنعان أرض غربتهم التى تغربوا فيها . وأنا أيضا قد سمعت أنين بنى اسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرت عهدى » (خر ٦ : ٢ : ٦) .

« واسكن فى وسط بنى اسرائيل وأكون لهم الها فيعلمون انى الرب الههم الذى أخرجهم من أرض مصر لأسكن فى وسطهم » (خر ٢٩ : ٤٥) .

« ولأجل أنه أحب آباءك واختار نسلهم من بعدهم أخرجك بحضرته بقوته العظيمة من مصر » (تث ٤٨ : ٣٧) وسمى اليهود أنفسهم الشعب الأزلى أو الشعب الأبدى تطاولا على الرب ولو مجازا فتخيلوا أنفسهم يشاركون الله فى أزليته وأبديته وأنهم مثله لا أول لهم ولا آخر . ولا بداية ولا نهاية وهو قول كبير أحس بعض مفكريهم بفداحته فسروه على أنهم أقدم شعوب العالم وهو المقصود بالأزلية ومن أدوم شعوب العالم وهو المقصود بالأبدية . وهى دعوى خرافية فهم ليسوا أقدم من الفراعنة ولا من أهل سومر وبابل وآشور ولا من الهنود والصينيين ولا من العرب وهم ليسوا أطول دواما من كثير من تلك الأمم .

هذه هى صورة الألوهية كما صورتها كتب اليهود المحرفة علما بأن اليهودية قبل التحريف كانت ديانة تقوم على الايمان باله واحد موجد للكــون خالق للســموات والأرض وما بينهمــا يتصرف فيهــا بارادته ومشيئته وهذا الاله الواحد يخالف جميع المخلوقات فلا يشبهها فى ذاتها ولا فى شــكلها ولا فى صــفاتها ((**ليس كمثله شىء وهو الســميع البصير**)) (الشورى : ١١) فهو- جل شــأنه واحد فى ذاته وواحد فى صفاته وواحد فى افعاله ولكن نتيجة للاضطهاد الذى تعرض له اليهود تولدت لديهم فكرة المسيح المنتظر . فبعد موت سليمان لاقوا من الذل والشر ما جعلهم يعتقــدون ان آلهة الشعوب المجاورة ارادت ان تنتقم من يهوه فأزلت شعبه وبدأو يتطلعــون الى مســيح يكون على يديه خلاصهم ولكن المخلص يبطىء ويوغل فى الابطاء . وتلوح لهم بارقة امل بعد أن فرقهم بختصر وظهور قورش الذى اعادهم الى فلسطين فحسبوه هو المســيح المنتظر . ولكن لما اســتولت الدولة الرومانيــة عليهــم وشتتهم وفرقتهم تجددت لديهم الأمانى والأحلام فى ظهور المســيح المنتظر وكان الشعور العام ينتظر ظهور هذا المســيح من نســل داود كقــائد شعبى كبير يستخدم المعجزات والخــوارق للانتصــار على الأعداء . وصارت كتابات الرؤى الرمزية تعكس هذه المشاعر والأحلام فقد كتبت لتشجيع قوما فى شدة الضيق والمتاعب فهى تصور لأحلامهم قضاء قريبا على الشر وسعادة للمؤمنين . وكثرت التكهنــات والأقاويل عن هــذا المســيح المنتظر فصوروه ملكا من كبار ملوك اليهود الســابقين الذين وجد الاسرائيلــيون فى رحابهم العز والمجد ســيقوم من قبره ليعيــد لليهود مجدهم وبعضهم يراه أميرا من سلالة شجاعة ســيقودهم الى النصر والى العصر الذهبى . وبعضهم يصوره نبيا من بيت داود سيجمعهم بكلمة واحدة وهدية الى حيث الحق ويقودهم الى النصر فلما جاء عيسى عليه السلام بعد ذلك احس اليهود انه المسيح المنتظر وارادوا ان ينصبوه ملكا عليهم ولكنهم لما رأوا ان دعوته الى الزهد والتقشف فى هذه الدنيا وهم قوم ماديون . وأنه يدعوالى ملكوت السموات ولا يدعوا الى ملك فى هذه الدنيا تحطمت آمالهم وذابت احلامهم التى نعموا بها فى ليل شقائهم الطويل فتحول لذلك حبهم له الى بغض وعداء فأنكروا نبوته واضطهدوه . حتى انه فى عهد الرسول صلى الله عليــه وســلم ذهب نفر من اليهود (١) اليه يسألونه عما يؤمن بهم من الرسل فلما ذكر لهم عيسى انكروا نبــوته وقالوا لا نؤمن بمن آمن به وما نعلم اهــل دين اقل حظا فى الدنيا والآخرة منكم . ولا دنيا شرا من دينكم فانزل الله فيهم ((**قل يا اهل الكتاب هل تنقمــون منــا الا ان آمنا بالله وما انزل الينا**

وما انزل من قبل وان أكثرهم فاسقون » (المائدة : ٥٩) .

لقد ذكرنا مراحل عبادة يهوه قبل بنـــاء الهيكل ومع الهيكـــل وبعد تدميره . فما هو هذا الهيكل وما قصته ؟

ان الدارس للتوراة يخرج بصورة واضحة عن الهيكل فقد وصف الله لموسى خيمة للاجتماع يقام فيها مذبح لتقديم الذبائح وممارسة ســـائر الطقوس الدينية . وقد وصف الله لموسى كيفية صناعتها وحدد له شكلها واطوالها ومشتملاتها تحديدا دقيقا . ويدخل فى مشتملاتها تابوت العهد المصنوع من خشب مغشى بالذهب وعليه غطـــاء من الذهب الخـــالص يعلوه تمثالين على شكل ملاكين من الذهب (خر ٢٥ : ٢٧) وخصص الله سبط اللاويين لخدمة خيمة الاجتماع . وبعد موت يشوع بن نون عاش اليهود عيشة بدوية لا تربطهم رابطة وكانت كل قبيلة تقدم ليهوه القرابين فى هياكل محلية ثم لما جاء سليمان الحكيم اقام هيكلا بديلا عن الخيمة مكونا من : —

(أ) قدس الأقداس وبداخله تابوت العهد الذى يعتبر اقتباسا من الفكـــر المصرى الذى كان به نظائر لهذا التابوت . وقدس الأقداس لا يدخله الا الحبر الأعظم مرة فى العام .

(ب) القدس وبداخله التالى :

— مذبحة البخور حيث يقدم هارون وبنوه ذبائح المحرقة .

— المنارة الذهبية ويخرج منها سبع سرج وهى مصنوعة من الذهب .

— مائدة خبز الوجوه وهى مصنوعة من خشب السنط ومغطاه بالذهب ولها اكاليل من الذهب .

(ج) الحجـــاب وهو الحيز الذى يفصـــل بين قدس الأقداس والقدس ثم توجد المرخصة والدار الخارجية .

وعلى العموم فطراز الهيكل هو الطراز الذى اخذه الفينيقيون من مصر واضافـــوا ما اخـــذوه عن الأشـــوريين والبـــابليين من ضروب التزين فهو سياجا مستطيلا يضم عدة اجنحة طوله حوالى مائة واربع

وعشرين مترا وعرضه حوالى خمس وخمسين مترا وارتفاعه حوالى اثنين وخمسين مترا .

ويعد بناء الهيكل من اهم احداث الملحمة اليهودية فانه لم يكن بيتا ليهوه فحسب بل مركزا روحيا لليهود ايضا وعاصمة لملكهم ووسيلة لنقل تراثهم وذكرى لهم يتراءى لهم طوال تجوالهم الطويل المدى على ظهر الأرض . وعظمت هيبة الهيكل وارتفعت اقدار كهانة واحبارة ردحا من الزمن ثم هدمه البابليون بعد ان اقام مجده اربعة قرون او اكثر ثم امر قورش الفارسي باعادة بنائه عام ٥٣٦ ق . م وجاء الرومان وهدموا الهيكل وشتتوا اليهود . وبذلك اندثرت الأمة اليهودية وعاشت فى الشتات .

الفصل الثانى

الألوهية فى ضوء الفكر المسيحى

تمهيـــد :

بعد أن حرف بنو اسرائيل شريعة موسى وجعلوا همهم جمع المال وامتد هذا التفكير المـــادى الى العلماء فاخذوا يحرضون العامة على تقديم القرابين والنذور الى الهيكل رجاء أن يصلوا الى الغفران وربطوا الغفران برضا الكهان ودعائهم . وتعمقوا فى المادية وبعدوا عن الروحية فانكروا القيامة والحشر وانغمس الكثير منهم فى متاع الحياة الدنيا غير خائفين من عاقبة ولا متوقعين حسابا .

أما الدولة الرومانية التى هى خليط من الشعوب المختلفـــة فمنهم من كان يدين بنجله مثرا الفارسية ومنهم من يدين بتحلة ايزيس المصرية ومنهم من يدين بنحلة المتنطسين المصرية ومنهم من يدين بنحلة أورفيوس اليونانية . كما تسللت الى بعض اتباع الدولة الرومانية بعض الديانات الهندية .

ومثرا هذا كان شخصية مزدوجة تجمع بين صفتى النور والحـــق وصفة المناضل رب الجنود ولقد كانت لعبادته درجات سبع يتنقلون فيها من درجة الى درجة على ايدى الائمـــة المختـــارين . وذلك شبيهـــا بما يتم الآن فى بعض الطرق الصوفية من تدرج مريدى الطرق الصوفيـــة فيما يسمونه المقامات والأحوال . ولقد اقترنت نحلة ايزيس بنحلة مثرا وسموها ديمتو أو حامية الأسرة وكان يرســـمون لها صـــورة وهى حاملة لطفل جميل كما يفعل المسيحيون حاليا عند ما يصورا السيدة العـــذراء وهى حاملة الســـيد المسيح رضيعا .

أما المتنطسين فكانوا يجتمعون يوم السبت وينصرفون بعد ذلك الى الصوامع للتأمل والدراسة الفلسفية . أما اتباع أورفيوس فهم يدينون بالتقشف والزهد ويعتقدون أن أورفيوس يزور عالم الموتى ويعود منه وجعلوا .وعدا يحزنون فيه على موته وموعدا يحتفلون فيه ببعثه وكان لشيوع هذه النحل فى الدولة الرومانية علامة طيبة تدل على طلب الاعتقاد وعلامة طيبة على الوجهة العالمية التى أخذت تسرى فى أنحـــاء العـــالم المعمور وتؤلف بين ابناء الأمم المختلفة فى طلب العقائد الروحية لأن هذه

النحل لم تكن مقصورة على امة دون امة ولم تكن محرمة على احد من اجل اصله مثل ما فعل بنى اسرائيل بديانة موسى ولكن فكل من يريد اعتناق هذه النحل فهو مقبول فيها .

ولقد ظهرت بعض النزعات الفلسفية الوافدة الى فلسطين من اليونان ومصر يقول العقاد كانت المذاهب الفكرية التى يتحدث بها المثقفون شائعة فى فلسطين حيث اختلط الغربيون والشرقيون كثيرا قبل عصر الميلاد ببضعة قرون وأكثرها الفيثاغورسية والابيقورية والرواقية وتغلغلت هذه المذاهب بين الطوائف الاسرائيلية متدينين وغير متدينين وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى فى غاية واحدة وهى طلب السكينة والراحة الا أن الفيثاغورسية كانت اقرب الى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود وهى جميعا أقرب الى النشأة الشرقية . ولقد انتشر المذهب الفيثاغورسى فى جميع الأقطار ولا سيما الأقطار التى اقام بها اليونان المستشرقون وكان أتباع فيثاغورس (٥٨٠ ق . م) تجتمع فى اخوة ذات شعائر وصلوات دينية بعضها معقول وبعضها من قبيل المحظور والمحرم . وكانوا يقولون « اذا وجدت نفسك قد اقترفت زلة فاستح منها واندم عليها واذا كانت قد فعلت خيرا فاستمتع به » وقد كان اتباع فيثاغورس يعتقدون أن فيثاغورش ابن الاله أبولون » وانه لم يمت وسيبعث بعد حين .

والعالم فى رأى الفيثاغورسيين كساحة الألعاب الأولمبية يقصدها اناس للتكسب وهم أحسن الزائرين ويقصدها اناس للمباراة وهم فوق ذلك ويقصدها اناس للفرجة وهم أرقى منهم جميعا . وهم يرون أن الأفكار الفلسفية وحى من الله فكل حكمة عندهم من الحكمة الالهية يتلقاها الباحث بالمناجاة والانسجام بين موسيقى الكون . ولقد ظهر فى هذه الحقبة من التاريخ فيلون الفيلسوف اليهودى الذى حاول أن يفلسف العقيدة اليهودية فأخذ القول بالكلمة من الرواقية وقال أنها واسطة الله فى علاقته بهذا العالم ومهما يكن من شىء فقد كانت هذه النزعات بمثابة التمهيد المنطقى لظهور السيد المسيح .

عقيدة التثليث :

يرى المسيحيون أن الله سبحانه وتعالى يتكون من ثلاثة أقانيم الله الأب الله الابن ـــ الله الروح القدس . ويقولون أن هذه الثلاثة عبارة عن اله

واحد وهذه الثلاثة ليست أجزاء لهـذا الاله يتركب منها لأن كل من هذه الثلاثة عبارة عن اله متصف بكل صفات الالوهية من قدم وقدرة وارادة وكمال علم فكل منها اله على حدة ومع ذلك فالثلاثة اله واحد له ذات واحدة بسيطة غير مركبة « وهذا التثليث فى طبيعة الله ليس مؤقتا أو ظاهريا بل أبدى وحقيقى » والمسـيحيون يعنون بالأقانيم الوجود والعلم والحياة أو الذات والنطق والحياة فيعنون بالأب الوجـود وبالروح الحيـاة وبالعلم الابن . يقول الشهرستانى « قالوا البارى جوهر واحد يعنون به القـائم بالنفس لا التحيز والحجمية فهو واحد بالجوهرية ثلاث بالاقنومية ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم وسموها الأب والابن والروح القدس وان العلم تدرع وتجسـد دون سائر الأقانيم ...« وهذه مقالات بعض علماء المسـيحية فى هذا الشأن : يقول مفيد كامل « الله كيان روحى ذو ثلاثة اقانيم أزلية واجبة الوجود (هم) عين جوهره ولا يلزم من ذلك أن نعتقد بثلاثة آلهة أو نعتقد بأن هناك ثلاثة كراسى واحد للأب وآخر للابن وثالث للروح القدس لأن هذا جائز لو افترضنا أن كلا جوهر مسـتقل عن الآخر الأمر الذى لا وجود له فى الثالوث الأقدس لأنه جوهر واحد هو الله الذى هو الأب والابن والروح القدس .

يقول زكى شنوده « عرف المسيحيون من السـيد المسيح أن الله واحد فى ثلاثة اقانيم هى الأب والابن والروح القدس وان هذه الأقانيم الالهية هى طبيعة واحدة وذات واحدة وجوهر واحد بسـيط منزه عن التأليف والتركيب وهذه حقيقة تفوق الادراك البشرى وقد فهمنا من كلام السـيد المسـيح أن الأقانيم الثلاثة الذين فى الله وأن اتحدوا جوهرا وطبعا وذاتا وصاروا واحدا الا انهم ثلاثة لا واحد من حيث الأقنومية فالأب ليس هو الابن والروح القدس ليس هو الأب ولا الابن » .

والى هذا القول يذهب حبيب جرجس « لا يوجد الا اله واحد وهو الاله الحقيقى السـامى فى جميع كمالاته العلية ان فى اللاهوت الأقدس ثلاثة أقانيم الأب والابن والروح القدس وهم وان كانوا ثلاثة معان الا انهم اله واحد وجوهر واحد اذ لا انفصال بين الله وكلمتـه وروحه وهـذا ما ندعوه سر التثليث والتوحيد . ويقول عوض سـمعان وهذه الوحدانية التى يقـول بها المسيحين ليست وحدانية مجردة من الصـفات الايجابية أو وحدانية مطلقة لا مجال لوجود صفاتها ازلا بل وحدانية تتميز بميزات خاصة بها . توجد بسـببها بين الله وبين ذاته علاقات خاصة منذ الأزل الذى لا بدء له الى الأبد الذى لا نهاية له ويسموا هذه الوحدانية وحدانية جامعـة مانعة

او وحدانية شاملة مانعة لأنها جامعة لهذه المميزات الخاصة ولأن الله بسبب هذه المميزات لم يكن مع تفرده بالأزلية وعدم وجود تركيب فيه فى حاجة لوجود صفاته وعلاقاته بالفعل أزلا الى شىء سوى ذاته . لذلك لا يقصد بوحدانية الله الجامعة المانعة أن هناك آلهة مع الله أو أن هناك تركيبا فى ذاته بل يقصد بها أن ذاته الواحدة التى لا تركيب فيها هى بنفسها جامعة مانعة ثم يقول ومع أن الله لا تركيب فيه ليس تعينا واحدا بل تعينات وكونه تعينات وليس تعينا واحدا أمر يتوافق مع كماله واستغنائه بذاته وعدم تعرضه للتطور أو التغير كل التوافق لأنه يدل على أنه مع تفرده بالأزلية كانت كل صفاته بالفعل أزلا أى قبل وجود أى كائن سواه ثم يقول وقد اصطلح فلاسفة المسيحيين فى الأجيال الأولى على تسمية هذه التعينات بالأقانيم » . فالوحدانية الحقيقية عند عوض سمعان لا تكون الا اذا كانت هناك وحدانية جامعة ومانعة . والحقيقة ان تلك الوحدة التى يقول بها عوض سمعان تتعارض مع عدم وجود تركيب فى الله وأن هذه العلاقات أو المميزات تتعارض مع أفراده بالأزلية لأن العلاقات لا تقوم الا بين اثنين على الأقل والله لا شريك له لذلك ليس من المعقول أن يكون له أزلا أى علاقة ومن ثم لا تكون لذاته مميزات خاصة به . كما أن تميز الله بمميزات خاصة يدل على قيامه بكثرة والحال انه ليست به كثرة ما . ولما يا ترى اله واحد فى ثلاثة اقانيم أو ليس فى تعدد الأقانيم انتقاص لقدر الله انهما ثلاثة آلهة كل منهما قائم بذاته ومتصف بصفات الألوهية اتصافا كاملا ومع ذلك يقولون أنهم اله واحد وأن هذه الاله المركب من ثلاثة ذات بسيطة غير مركبة .

انه كلام يتعارض مع ذوى العقول السليمة ويتنافى مع كل منطق فكيف يجتمع فى ذات الله ثلاث ذوات متميزة ثم تكون ذاتا واحدة وكيف يكون الله تارة وأبا تارة وابنا تارة وتارة الروح القدس ثم يمتزجون ويصبحون وجها واحدا هو الله . هؤلاء ثلاثة آلهة وليس اله واحد واذا قلت لهم اذا كان الأقنوم بهذا الوضع ذاتا لا صفة فلماذا لا يطلق عليه جوهر اجابوا بأنهم لا يعرفون حقيقة الاقنوم فلا يمكنهم أن يعبروا عنه بعبارة ما واذا قلت لهم ان عدم معرفة الأقنوم تستلزم حتما عدم معرفة الاله المركب من الثلاثة فلا يصح أن يطلقون عليه جوهر : لجأوا الى التفويض والتسليم وقالوا أن هذه مسائل للاعتقاد والايمان فقط وليست خاصة للفهم ولا داخلة فى مجال العقل لأن العقل قاصر على فهمها فالناس مطالبون بالايمان بها دون البحث عن حقيقتها ويقولون : ان تسمية الثالوث باسم الأب والابن والروح القدس يعتبر اعماقا الهية واسرار

سماوية لا يجوز لنا أن نتفلسف فى تفكيكها وتحليلها أو نلصق بها أفكار من عندياتنا » .

ويذهب الى هذا الرأى الأستاذ / يس منصـــور بقــوله « ان الأقانيم ليست مجرد أسماء تطلق على الله أو مجرد صفات ينعت بها بل ثلاث شخصيات متميزة غير منفصلة متســاوية فائقة عن التصور » واننى أقول للقس توفيق جيد والأستاذ / يس منصور وغيره ما قاله ابن تيمية ان من أعظم القبائح المحرمة فى جميع الشرائع أن يقول الانسان برأيه على الله قولا لا يتصوره ولا يفهمه وجميع العقلاء يعلمون أن من قال قولا وهو لا يتصوره ولا يفقهه فان قوله مردود عليه غير مقبول منه . وان قوله من الباطل المذموم وان قال لعائلهم انى أفقه ما أقول واتصوره وأعقله قيل له بينه لغيرك حتى يفقهه ويعقله ويتصوره ولا تقل هذا فوق العقل بل هو قول قد عقلته وفهمته .

ولكن الأب بولس اليسوعى لا يلجأ الى التســليم والتفــويض بل يقول : اذا اطلعنا على كنه الله لا يسعنا الا القول بالتثليث وكنــه الله محبة ولا يمكن الا أن يكون محبة ليكون سعيدا ، فالمحبة هى مصدر سعادة الله ، ومن طبائع المحبة أن تفيض وتنتشر على شخص آخر فيضان المــاء وانتشار النور ، فهى اذن تفترض شخصين على الأقل يتحابان وتفترض مع ذلك وحدة تامة بينهما فليكن الله سعيد ولا معنى لاله غير ســعيد والا انتفت عنه الالوهية وكان عليه أن يهب ذاته شخصا آخر يجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ويكون بالتالى صورة ناطقة له ولهذا ولد الله الابن منذ الأزل نتيجة لحبه اياه ووهبه ذاته ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته وبادل الابن الأب هذه المحبة ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته وثمرة هذه المحبة المبادلة بين الأب والابن كانت الروح القدس وهو الحب اذن يجعل الله ثالوثا وواحدا معا ولا يصح أن يكون هذا الكائن الذى حبس الله محبته عليه الا الابن ولو كان غير الابن ولو كان خليقة محدودة بشرا أو ملاكا لكان الله بحاجة الى من دونه كما لا وعد ذلك نقصا فى الله والله منزه عن النقص فليس الله اذا كائنا تائها فى الفضاء منعزلا فى السماء ولكنه أسرة مؤلفة من أقانيم ثلاثة يسودها المحبة وتفيض منها على الكــون ببراعته وهكذا يمكننا أن نقول ان كنه الله يفرض التثليث .

ويقول القس توفيق جيد : ولأن الوحدانية دون الثالوث تجعل الله فى الأزل بدون موضوع للمحبة فالواحد من كل وجه لا يقــدر أن يحب غير

نفسه وبعبارة اخرى بدون الثالوث او بالأحرى بدون التمييز الاقنومى لا يبقى لله فى ازليته سوى ذاته ليحبها وتنزيها لله عن محبة الذات فقد وجد الثالوث حتى تتجه محبة الأقنوم الالهى نحو الاقنوم الآخر . كيف يمكن لرجال دين المفروض فيهم رجاحة العقل ان يرددوا مثل هذه الترهات الله أحب الابن قبل وجوده فولده نتيجة ذلك الحب ومع ذلك فالابن قريب من الأب فى الزمان ونتيجة الحب بين الأب والابن اله ثالث هو الروح القدس فالمسالة اذا ليست حبا الهيا مجردا وانما هو حب من أجل الزواج ونتيجة هذا الزواج بين الوالد والولد وهما الهان نتج اله ثالث هو روح القدس .

ونظرية المحبة هذه لها نظير عند فلاسفة اليونان الذين يقولون ان العالم قديم بمواده وعقوله ويسمون ذلك بالقدم الزمانى ويفرقون بينه وبين القدم الذاتى فالقديم لذاته هو الذى لا يحتاج لغيره فى شىء ما ويخصون بذلك الله وحده واما القدم الزمانى فهو أن يكون الشىء صادر عن القديم لذاته بطريق التعليل بمعنى ان الله عله فى وجوده والعلة تؤثر فى معلولها ولكن لا تنفك عنه طرفة عين فلم يفصل بينهما زمن وهذا هو معنى القدم الزمانى فهم مثلا يقولون ان اول ما صدر عن الاله جوهر مجرد عن المادة يسمونه بالعقل الأول وهو لا ينفك فى الوجود عن الاله طرفة عين ولكن الاله هو الذى اثر فيه الوجود فهو ممكن فى ذاته قديم لكون الاله علته فيه والفلاسفة يستدلون على نظريتهم هذه بكلام يصح أن يكون محل نظر . فهم يستدلون بأن الاله معناه الغالب والغالب لابد له من مغلوب ولا يصح أن يكون غالبا فى المستقبل فقط لأن ذلك نقص فى له من مغلوب ولا يصح أن يكون غالبا فى المستقبل فقط لأن ذلك نقص فى الاله فيجب أن لا ينفك عنه المغلوب طرفة عين ويظهر أن الأب بولس اليسوعى اطلع على هذه النظرية ولم يفهمها فجازف فى القول بدون حساب فقال ان المحب يقتضى محبوبا فى الأزل والا لزم التغيير فى ذات الله تعالى وذلك خطأ واضح لأن الله تعالى متصف بصفات ازلية باتفاق ومع ذلك تتعلق بالممكنات التى تستوجب ازمنة مختلفة ولم يخطر على بال أحد من العقلاء ان التغيير فى تعلق الصفة يوجب التغيير فى الصفة أو فى الذات والا لو كان هذا صحيحا لاستحال ان يوجد لله تعالى شيئا من الممكنات فى المستقبل .

على أن الذى ذكره الفلاسفة انما يريدون به تنزيه الله وقد قرروا أن كل ما عداه يستحق الوجود منه فالكل ممكن وهو وحده الواجب ولكنهم قالوا بقدم بعض الممكنات بالزمان ليكون الله غالبا بالفعل ولكن قد فاتهم

ان ذلك يوجب كون الله علة فى المكنات والمعلول يصدر عن العلة بغير اختيارها ورغم ارادتها وذلك نقص فى الاله ومن ذلك يتضح لنا ان الأب بولس لم يفقه قول الفلاسفة وأراد ان ينسج على منواله فوقع فى هذا الخطأ الصريح . على اننا لو سلمنا جدلا أن المحب يقتضى محبوبا فان ذلك لا ينفعه شيئا لأنه لا يلزم من ذلك ان يكون المحب مساويا للمحبوب فى التقدم الذاتى بل كل ما يلزم هو أن يكون المحب والمحبوب مقترنين فى الوجود الخارجى بمعنى أن يكون المحب علة مؤثرة والمحبوب اثرا فهو قديم بالزمان كما يقول الفلاسفة فمن أين أتى أن اقنوم الابن مساويا لأقنوم الأب فى القدم الذاتى . وبالجملة فقول بولس أن صفة المحبة فى الله فى الأزل لا توجد الا اذا قلنا بتعدد الأقانيم مع وحدة الجوهر والا كان الله متغيرا قول هراء لأن الله يتصف بالصفات الأزلية باعتراف علماء المسيحية وهى تتعلق بالمكنات فى ازمنة متعددة ولا يلزم من تغير التعلق تغير الصفة او الذات . وعلى فرض أن الصفة تقتضى شيئا تتعلق به فى الأزل فان ذلك الشىء يكون ممكنا فى ذاته اما كونه اقنوما مساويا لله فذلك قول سخيف . ولقد ادى اعتقاد المسيحيين بهذا الثالوث الى خلق مشكلة : لهم وهى محاولة التوفيق بين الوحدانية التى هى سمة الأديان السماوية والتى نادت بها التوراة وبين القول بعبادة الثالوث . فجد جدهم واعملوا فكرهم وقالوا كلاما يوفقون به بين الوحدانية والتثليث وافق العقل أو لم يوافقه فهذه ليست مشكلتهم يقول عوض سمعان « الله واحد وثالوث فهو واحد من جهة وثالوث من جهة اخرى فكما أن الانسان واحد فى مظهره ففى الوقت نفسه هو جوهريا مكون من ثلاث عناصر هى الجسد والنفس والروح كذلك الله فهو واحد من جهة وجامع شامل من جهة اخرى دون اى تعارض او تناقض فى ذاته فالله واحد من جهة الجوهر أو الباطن وهو جامع من جهة التعيين او الظاهرية وجوهر الله يسمى اللاهوت اى الله فى جوهره . وهذا الجوهر نفسه بالنظر الى تعينه وظهوره هو الله . فالله هو اللاهوت ايضا معينا واللاهوت هو الله جوهرا اى أن الله هو اللاهوت ظاهرا واللاهوت هو الله مستترا والله واللاهوت واحد لأن جوهر اللاهوت هو عين تعينه وتعينه هو عين جوهره » .

والأستاذ / عوض سمعان يقرر لنا أن الله رغم اعلانه لنا انه واحد دل انه فى حقيقته وباطنه ثلاثة اجزاء وكل جزء أو تعيين هو اله كامل فهو يقرر بعد فحصه لله وتشريحه .. لداخل الذات الالهية وبعد كشفه المحجب والاستار عن مكونات الله . تبين له أن الله ليس واحد بل ثلاثة .

فالله فى اعتقاد هذا الكاتب وامثاله من دعاة التثليث انه يظهر غير ما يبطن فهو يظهر للبشر بمظهر لا يعبر عن حقيقته وداخله تلك الحقيقة التى تقرر انه سبحانه مكون من ثلاثة آلهة .

والسؤال الذى يواجهنا الآن لماذا لم يظهر التثليث فى التوراة ؟ يقول القس بوطر موضحا ذلك مبينا لماذا لم يظهر الابن وروح القدس فى التوراة ولا قال بهما اليهود : بعد ما خلق الله العالم وتوج خليقته بالانسان لبث حينا من الدهر لا يعلن له سوى ما يختص بوحدانيته كما يتبين ذلك من التوراة على أن المدقق لا يزال يرى بين سطورها اشارات وراء الوحدانية لأنك اذا قرأت فيها بامعان تجد هذه العبارات كلمة الله وحكمة الله أو روح القدس ولم يعلم من نزلت اليهم التوراة ما تكنه هذه الكلمات من المعانى لأنه لم يكن قد أتى الوقت المعين الذى قصد الله فيها ايضاحا على وجه الكمال والتفصيل ومع ذلك فمن يقرأ التوراة فى ضوء الانجيل يقف على المعنى المراد اذ يجدها تشير الى أقانيم فى اللاهوت ثم لما جاء المسيح الى العالم أرانا بتعاليمه واعماله المدونة فى الانجيل أن له نسبة أزلية سرية الى الله تفوق الادراك فهو مسمى فى أسفار اليهود « كلمة الله » وهى ذات العبارة المعلنة فى الانجيل . ثم لما صعد الى السماء ارسل روحا ليسكن بين المؤمنين وقد تبين أن بهذا الروح أيضا نسبة أزلية الى الله فائقة كما للابن ويسمى الروح القدس وهى ذات العبارة المعلنة فى التوراة . ومما تقدم نعلم بجلاء أن المسمى بكلمة الله والمسمى بروح الله فى نصوص التوراة هما المسيح والروح القدس المذكوران فى الانجيل فما لمحت به التوراة صرح به الانجيل كل التصريح وأن وحدة الجوهر لا يناقضها تعدد الأقانيم وكل من أنار الله ذهنه وفتح قلبه فى فهم الكتاب المقدس لا يقدر أن يفسر الكلمة بمجرد أمر من الله أو قول مفرد ولا يفسر الروح بالقوى التأثيرية بل لا بد له أن يعلم أن فى اللاهوت ثلاثة أقانيم متساوية فى الكلمات الالهية ومتميزة فى الاسم والعمل والكلمة والروح متساوية منها ويدعى الأقنوم الأول الآب ويظهر من هذه التسمية أنه مصدر كل الأشياء ومرجعها وأن نسبته للكلمة ليست صورية بل شخصية حقيقية يمثل للافهام محبته الفائقة وكلمته الرائعة ويدعى الأقنوم الثانى الكلمة لأنه يعلن مشيئته بعبارة وافية وأنه وسيط المخابرة بين الله والناس ويدعى أيضا الابن لأنه يمثل للعقل نسبة المحبة والوحدة بينه وبين أبيه وطاعة الكلمة لمشورته . والتمييز بين نسبته هو الى ابيه ونسبة كل الأشياء اليه ويدعى الأقنوم الثالث الروح القدس للدلالة على النسبة بينه

وبين الأب والابن على عمله فى تنوير ارواح البشر وحثهم على طاعته .
وما ذهب اليه القس بوطر ذهب اليه مفيد كامل بقوله : « تزخر اسفار العهد القديم بالكثير من الرموز والتلميحات على تثليث الأقانيم ووحدة الجوهر الالهى » .

ونلاحظ هنا ان القس بوطر وغيره من علماء المسيحية يجتهدوا لأن يستنبطوا من نصوص التوراة ما يحملوه على انه يشير الى التثليث كعبارة — كلمة الله — او عبارة — الروح القدس — وذلك لتلتقى التوراة مع الانجيل فى التثليث وذلك بتحميل عبارات التوراة ما لا تحتمل وليشيروا الى ان التثليث موجود فى التوراة ولكنه غير واضح فوضحه العهد الجديد وهذا ما دعى البستانى الى القول فى دائرة المعارف : انه لا يمكن ان يؤتى بآية من العهد القديم تصرح بتعاليم الثالوث ولكن قد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء أمثال ترتليانوس آيات تشير الى وجود صورة جمعية فى اللاهوت ولكن لم تكن هذه الآيات كبرهان قاطع على الثالوث لأنها قابلة لتفاسير مختلفة ولكن يؤتى بها كرموز الى الوحى الواضح الذى يعتقدون انه مذكور فى العهد الجديد ومن الشىء المضحك حقا ان بعض علماء المسيحية وهم يقولون ان الاسلام يقول ايضا بالتثليث لأن التوحيد فى الاسلام لا ينفى التعدد فمن المعلوم ان الله متعدد الصفات فانها لا تبطل وحدة الذات ومثل ذلك فان تعدد الاقانيم لا يبطل المسلمون بانه الصفات الحسنة جامع صفات الكمال ومع ذلك التعدد فى الصفات فانها لا تبطل وحدة الذات ومثل ذلك فان تعدد الاقانيم لا يبطل وحدة الجوهر الالهى .

وليعلم هؤلاء العلماء ان هناك فرق واضح بين تعدد ذوات حقيقية تتحد مع بعضها اتحادا حقيقيا مع بقاء شخصيتها وبين تعدد صفات تتعلق بذات واحدة . لأن الحالة الاولى تعطينا ثلاثة آلهة اضف الى ذلك أن اتحاد الذوات باطل لأنه لا يمكن وقوعه .

وليعلم هؤلاء المسيحيين ان تعدد الصفات لا ينافى وحدة الذات فان الانسان الواحد يتصف بالشجاعة والصبر .. الخ ومع ذلك هو لم يتغير لأن هذه الصفات امور معنوية قائمة به وتابعة له فالمسلمون يقولون ان ذات الله واحدة من جميع الجهات وأن صفاته هى عين ذاته وانما وصف الاله سبحانه فى كتابه الكريم بالصفات المتعددة ليرشد العقول البشرية الى الآثار المترتبة على تلك الصفات وبالجملة فكل ما تحسبه العقول

البشرية السليمة كما لا لله تعالى فيجب أن يوصف الله تعالى به باعتبار الآثار المترتبة عليه بقطع النظر عن كون هذه الآثار مترتبة على أمر زائد على الذات أو مترتبة على نفس الذات فقولهم أن تعدد الصفات عند المسلمين كتعدد الأقانيم عند المسيحيين أمر باطل لا ريب فى ذلك .

ان الدعوة الى الثالوث لا صلة لها بالمسيحية ولا برسالة السيد المسيح عليه السلام والمسيحية ورسولها بريئان من كل ما الصقه المارقون بها سواء بقصد الاساءة أو بقصد الاحسان فالنتيجة فى الحالتين هى تشويه رسالة من أعظم الرسائل التى انزلها الرحمن لهداية البشر رسالة تدعوا الى التوحيد لا التثليث ولكن المسيحيون فهموا عقيدة الثالوث من مؤلفات الأولين فهم مقلدين أسلافهم فى فهمها وهذا دليلا على ضعف هذه العقيدة فالعقائد لا تثبت الا بالبراهين القطعية التى تزعن لها العقول . ومن أجل ذلك قديما وحديثا خرج على عقيدة الثالوث الكثير من منكريهم لأنهم غير مقتنعين بالأدلة التى لديهم لاثبات عقيدة الثالوث لأنها عقيدة مغلقة على افهام العلماء فكيف بعامة الشعب يقول القس بوطر : قد فهمنا على قدر طاقة عقولنا ونرجو أن نفهمه أكثر جلاء فى المستقبل حيث ينكشف لنا الحجاب عن كل ما فى السموات والأرض ففى القدر الذى فهمناه كفاية » .

ويذهب الى هذا المعنى القس توفيق جيد بقوله : « ان الثالوث سر يصعب فهمه وادراكه وأن من يحاول ادراك سر الثالوث تمام الادراك كمن يحاول وضع مياه المحيط فى كفه » .

ويقول الأستاذ / يس منصور « من الصعب أن نحاول فهم هذا الأمر بعقولنا القاصرة » .

ويقول مؤلفوا الكتاب المقدس وهم جماعة من اللاهوتيين ما نود أن نشير اليه أن عقيدة التثليث . عقيدة سامية ترتفع فوق الادراك البشرى ولا يدركها العقل مجردا لأنها ليست وليدة التفكير البشرى بل هى اعلان سماوى يقدمه الوحى المقدس .

ويقول مؤلفوا علم اللاهوت النظامى « لما كانت عقولنا محدودة القوى كان لابد من عجزها بما عندنا الآن من النور الالهى عن ادراك أسرار دينية فى طبيعة الله » .

ويقول عوض سمعان « اننا لا ننكر ان التثليث يفوق العقل والادراك فاذا كان العلماء والفلاسفة عجزوا عن فهم هذا الثالوث فما على البسطاء والعامة الا ان يؤمنوا بالثالوث دون تفكير أو تمحيص ايمانا مطلقا وعليهم أن يلغوا عقولهم .

اذن فالمسيحيون على اختلافهم متفقون على ان الله مركب من ثلاثة اقانيم كل واحد كصاحبه من جميع الوجـــوه ومع ذلك فكل واحد منهـــا متميز عن الآخر فالكل واحد لأنه مركب من ثلاث طبائع متجانسة متحـــدة وكل واحد منها هو الكل فيقال لأقنوم الأب انه اله ولما كان مســـاويا فى طبيعة لأقنوم الابن . كان اقنوم الابن موجودا فيه ومثل ذلك يقال فى باقيها وانما اختص روح القدس بهذا الاسم مع انهم يقولون ان الأب روح والابن روح لأنهم يعتبرون للأقانيم ثلاث مراتب مرتبة الأب وهى العليـــا ويليها مرتبة الابن ويليها مرتبة الروح القدس فسمى الأول ابا والثـــانى ابنا ولم يبق الا الثالث فلم يبق له اسم يناسب مرتبته فسمونه بالاسم العام. ورغما من انهم يطلقون على هذه الثلاثة اقانيم بمعنى حقائق وجودية لكل واحد منهـــا وجود خاص تمتاز به عن صاحبتها فانهم يســـمون أقنوم الأب بالوجود الواجب وأقنوم الابن بالعلم والعقل ويسمون أقنوم روح القدس بالحياة أو الارادة . فالله مركب من ثلاثة أمور متميزة وان اتحدوا فى الجوهر والقدم والصفات . ولكن علمائهم يحاولون أن يجعلوهم جميعا اقانيم لشىء واحد بعبارة صريحة يحاولون الجمع بين التثليث والوحدانية فيقولون بثلاثة آلهة كل منها قائم بذاته ومتصف بصفاته الالوهية اتصافا كاملا ومع ذلك يتكون منها اله واحد وأن هذا الاله المركب من ثلاثة ذاته بسيطة غير مركبة . والحقيقة أن من يقول بذلك مكابر بغير عقـــل ومثله لا يعول له على رأى لأنه لا يمكن للمثلين اتحادهما بحيث يصير أحدهما عين الآخر الا اذا زالا وحل محلهما شىء آخر فمثلا عمر وعلى المشتركان فى الانسانية وجميع الصفات ما عدا الوجود الخاص الذى يميز أحدهما عن الآخر فهل يقبل العقل أن عمر وعلى اتحدا وصار أحدهما الآخر ؟ طبعا لا يمكن ذلك الا اذا زالت شخصيتهما وحلت محلها شخصية أخرى أما اذا بقيت شخصية كل منهما ولم تزل فلا يكونان متحـــدين واذا انعـــدمت شخصية احدهما ولم تنعدم الأخرى لا يتأتى الاتحاد . اذ لا اتحاد بين الموجود والمعـــدوم فالتركيب فى ذات الله بمعنى الاتحاد الحقيقى وهو أن يجتمع ثلاثة جواهر متميزة لكل واحد منها وجود خاص يمتاز به عن صاحبه بحيث يكون أحدهما أولا لثان وثالث وأن كل واحد منها يصدق عليه

الكل لتماثلهم فى الحقيقة فذلك مستحيل الوقوع بالنسبة للاله وللمخلوقات فمن يمكن أن يتصور أن عمر وعلى قد اتحدا مع بقاء شخصية كل منهما فانه يمكن أن يتصور اتحاد الأقانيم الثلاثة مع بقاء شخصية كل واحد منها . وذلك لأنه اذا وجد ثلاثة حقائق قائمة بنفسها مجردة عن المادة أزلا كل واحد منها تقتضى ذاته الوجود فلا معنى لهذا الوجود الا وجود ثلاثة آلهة كاملة لأن الذى ذاته تقتضى الوجود يكون الها كاملا من جميع الوجوه ومتى وجد آلهة ثلاثة كان من طبيعة كل منهم التفرد بالسلطان المطلق لأن ضعف السلطان نقص وذلك يفضى الى التنازع حتما فيختل نظام العالم لتنازع الآلهة فاذا كانت هذه الآلهة الثلاث قد اتفقت على أن تقوم معا بهذه المهمة فمعنى ذلك احتياج كل أقنوم أو اله منها الى الآخر وعدم استقلال أى منها فى عمله وعجز أى اله عن القيام بالعمل وحده ينفى عنه صفة الالوهية . فاذا كانت هذه الآلهة الثلاثة أو الأقانيم الثلاثة قد اتفقت على أن يقوم احدها بالعمل دون الآخرين فيقوم الأب بالعمل دون الابن والروح القدس فحينئذ يكون الابن والروح القدس عاطلين بدون عمل ويصبحان لا فائدة ولا قيمة لهما ولا داعى لوجودهما .

كذلك اذا تصورنا وجود أكثر من أقنوم أو اله واحد فى الكون لكان كل اله منها متحيز بمكان خاص به والمتحيز بمكان لا يكون ازليا بل يكون حادثا فلا يمكن أن يكون أى منهم هو الله فالله أسمى من أن يحده مكان من الأمكنة أنه أسمى من أن تحده الفوقية أو التحتية أو اليمينية أو اليسارية قال ارسطو : المحرك الأول لا ينحصر فى مكان ما لأنه غير جسمى ولأنه أيضا ليس فى حاجة الى مكان معين » .

وقال اسحق بن العسال « كل متحد متناه وكل متناه محدث فكل متحيز محدث أما البارى فليس بمحدث لذلك فهو ليس متحيز .

والدارس للعهد القديم يجد أن الكثير من الآيات التى لم تعبث بها الأيادى تنص على أن الله لا يتحيز بمكان .

« أما أملأ أنا السموات والأرض . يقول الرب » (أر ٢٣ : ٢٤ (.

« أين اذهب من روحك ومن وجهك اين اهـــرب . ان صـــعدت الى السموات فانت هناك وان فرشت فى الهاوية فها انت ان اخذت جنـــاحى الصبح وسكنت اقاصى البحر فهناك أيضـــا تهـــدينى يدك وتمســـكنى يمينك » (مز ١٣٩ : ٨ : ١٢) .

والمسيحيون يحملون التوحيد والتثليث كليهما على المعنى الحقيقى وهذا باطل لأنه اذا وجد التثليث الحقيقى لا بد أن توجد الكثرة الحقيقية لأن العدد لمـــا كان قسما من الكم لا يكون قائما بنفسه بل بالغير وكل موجود لابد يكون معروضا للوحدة أو الكثرة والذوات الموجودة بالامتياز الحقيقى تكون معروضة للكثرة الحقيقية فاذا صـــارت معروضة لها نكون معروضـــة للوحدة الحقيقية ولا يلزم اجتماع الضديين الحقيقتين .

اذن حيث توجد الكثرة الحقيقية لا يوجد التوحيد الحقيقى والا لزم اجتماع الضدين الحقيقيين وهذا محال فلزم تعدد واجب الوجود وهو الله تعالى وبات التوحيد يقينا والقائل بالتثليث فى هذه الحالة لا يمكن أن يكون موحدا حقيقيا والقول بأن التثليث الحقيقى والتوحيد الحقيقى وان كان ضدين حقيقيين فى غير الواجب لكنهما غير ذلك فيه سفسطة لأنه اذا ثبت أن الشيئين بالنظر الى ذاتيهما ضدان حقيقيان أو نقيضان فى نفس الأمر فلا يمكن اجتماعهما فى أمر واحد شخصى فى زمان واحد من جهـــة واحدة واجبا ذلك الأمر أو غير واجب .

ان عقيدة الثالوث كما يقول اتباعها غامضة على العقول بعيدة عن المنطق يروى الشيخ رحمة الله الهنـــدى : أن احـــد القساوســـة تولى تنشئة ثلاثة من الصبية الرهبان فى أحد الاديرة وعلمهـــم كافة العقـــائد المسيحية وخاصة عقيدة الثالوث ثم حضر يوما أحد أصدقاء القســـيس وسأله عن حالة الصبية الثلاثة ومدى المامهم بالثالوث فطلب القسيس واحد من الصبية ليرى صديقه وساله عن الثالوث فقال الصبى : لقـــد علمتنى ان الاله ثلاثة أحدهم فى السماء والثانى ولدته العذراء والثالث نزل من الســـماء فى صورة حمامة على الاله الثانى فغضب القســـيس وطرده ثم طلب الثانى وساله فقال انك علمتنى ان الآلهة كانوا ثلاثة وصلب واحد منهم فالباقى الهان فطرده القسيس وأتى بالصبى الثالث الذى قال : لقد علمتنى أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وقد صلب واحـــد منهم ومات فمات الكل لأجل الاتحاد ولا اله الآن يدير الكون والا لزم نفى الاتحاد » .

وانني اقول لعلماء المسيحية ان اراء هــؤلاء الصــبية هو اقصى ما يستطيع أي ذي عقل أن يفهمه عن عقيدة الثالوث وسنعلم فيما بعــد أن القول بالثالوث قد جاء نتيجة حتمية للقــول بالوهيــة عيسى وان القائلين بالثالوث يحاولون أن يزخرفوا للعقول نظرية اتحاد المجرد بالمادى لترجع بكثير من ضعاف القول الى العقائد الوثنية التى كانت ســائدة فى مجتمعاتهم كما أن تسمية هذه الامور بالاقانيم يرجع الى أثر الفلســفة الاغريقية وتحديدها بثلاث يرجع الى المصدر نفسه فهو يذكرنا بمثــل افلاطون فقد جعلها أصول هذا الوجود المشــاهد واعتبر هذا الوجود ظلالها وشبيها بها فقط ويذكرنا بثالوث أفلوطين المصرى الذى يمثــل فى الواحد — العقل — ونفس العالم .

ولو فتشنا عن الألفاظ الدالة على هذه المعــانى الثلاثة فى المصدر النصى للمسيحية وجدناها الله — كلمة الله . الروح القدس .

ولكن ما الصلة بين الله والأب وما يقابله من اقنــوم الوجود حتى يكون شرحا له وبديلا عنه فى القصد . وما هى الصــلة بين كلمــة الله وما يقابلها من أقنوم العلم وما هو الربط بين الروح القدس والحياة .

لا تتضح الصلة بين الله والوجود الا بعد شرح الوجود . فالوجود الفلسفى هو الوجود المطلق والوجود المطلق يســاوى الأول والعلة الأولى للوجود كله والوجود الفلسفى يقال على الثابت غير المتحرك غير المفتقر الخير بطبعه الكامل من ذاته والله فى نظر المسيحية جامع لكل هــذه الصفات . أما الصلة بين الكلمة والعلم صلة واضحة لأن الكلمة تطلــق ويراد منها اللفظ والعبارة وتطلق كذلك ويراد منها العقل logos والعقل والعلم يؤول المراد منهما الى معنى واحد لأن العقل ادراك ما يعقل والعلم تحصيل ما يعلم . فاطلاق الكلمة وارادة العلم منها اطلاق لغوى صحيح كما أن صلة الروح بالحياة صلة واضحة أيضا اذا علم أن القوة المدبرة التى هى اساس معنى الحياة مأخوذ من معنى الروح القدس فاطلاق الروح القدس وارادة الحياة لهذه العلاقة أمر جائز فى اللغة(١) ولكن هل هــذه الاقانيم شىء واحد أم مســتقلة ؟ اليعاقبــة (الأرثوذكس والملكانيــة (الكاثوليك) يرون أن هذه الأقانيم مستقلة وأن كلا من العلم والحياة غير الوجود ومذهبهم فى الشرح كان يميل فى آخر اطواره الى الاتجاه المادى فهم يقولون بالتثليث فى أصل العالم .

اما النساطرة فكانوا يرون ان العلم ليس شيئا وراء الوجود وان الحياة ليست شيئا مستقلا عنه كذلك فهم يميلون فى شرحهم الى الناحية المعنوية ومن ثم نسب اليهم القول بالوحدة فى أصل العالم أو الوحدانية لله .

فالنساطرة يقولون بالوجود والعلم والحياة لانهم ملتزمين الشرح فى حدود النصوص المسيحية ولكن تأثرهم بالفلسفة اليونانية فى شرحهم العقلى حملهم على أن يروا أن التصديق بالثلاث عبارات ليس قولا بالتثليث فى الواقع لأن مدلولاتها ترجع فى الحقيقة الى شىء واحد هو الوجود فالوجود هو الجوهر وهو الذات الواحدة فى الواقع والعلم والحياة صفتان أو اعتباران له وبهذا لا يوجدان كثرة حقيقية وعلى هذا فالله وكلمة الله والروح القدس تلك العبارات التى وردت فى النص المسيحى لا تدل على ذوات ثلاث فى واقع الأمر بل الله هو الذات الواحدة وهو وحده أصل العالم . فكلمة الله على معنى علمه والروح القدس على معنى القوة المدبرة حالان أو اعتباران لذاته وبهذا التفسير عدوا من أصحاب مذهب الوحدة .

والمسيحيون فهموا عقيدة الثالوث من مؤلفات الاولين ويعتمدون على ثلاث قوانين أساسية وضعتها لهم مجتمعاتهم وهى :

قانون الايمان الرسولى والقانون النيقوى والقانون الاثناسيوسى وهم يعولون على هذه القوانين فى عقيدتهم أكثر مما يعولون على كتبهم المقدسة فهذه القوانين الثلاث هى الأصل الذى يرجعون اليه يقول صاحب ميزان الحق « ان المسيحيين فهموا عقيدة الثالوث من مؤلفات المسيحيين الأولين الذين بقيت كتاباتهم الى عصرنا الحاضر مما يدل على انهم فهموا الكتاب من هذه الحقيقة كما فهمناه . وقانون الايمان الرسولى يقول « أؤمن بالله الآب الضابط الكل خالق السماء والأرض وبالمسيح يسوع ابنه الوحيد ربنا الذى حبل به الروح القدس وولد من العذراء مريم وتألم فى عهد بيلاطس ومات وقبر ونزل الى الجحيم وصعد الى السماء وجلس على يمين الله الآب الضابط الكل حيث سيأتى ليدين الأموات والأحياء وأومن بالروح القدس وبالكنيسة المقدسة شركة القديسيين وبمغفرة وبقيامة الاحياء وبالحياة الأبدية » .

ولما اشتد الخلاف بين الطوائف المسيحية الأولى حول شخص المسيح هل هو رسول أم له بالله صلة خاصة أكبر من الرسول فهو من الله فى منزلة الابن لانه خلق من غير أب ولكن لا يمنع ذلك انه مخلوق من الله

لأنه هو كلمته ومن قائل انه ابن الله له صفة القدم كما لله تعالى تلك الصفة. كما ظهر من ينادى بالتوحيد مثل آريوس الذى كان يقول ان الأب وحده الله والابن مخلوق مصنوع وقد كان الأب اذ لم يكن الابن ولقد كان لرأى أريوس مشـــايعون كثيرون فقد كانت كنيسة أســـيوط وعلى رأســـها ميليتوس على هذا الرأى وكان انصاره فى الاسكندرية كثيرون كما كان لهذا الرأى مشايعون فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية وكان يعـــارض هذا الرأى بطريرك الاســـكندرية . وقد تدخل قســـطنطين الامبراطور الرومانى فى الأمر ودعا جميع الأطراف الى الاتفاق ثم جمع بينهم فلم يتفقوا فجمع مجمع نيقية (٣٢٥م) .

وقد حضر هذا الاجتماع حوالى ثمانية واربعون وألفان من الأسقفة فمنهم من كان يقول ان المسيح وأمه الهان وهم البربرانية والريمتين ومنهم من يقول أن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية وهم اتباع سابليوس ومنهم من يقول لم تحمل مريم تسعة اشهر وانما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب وهى مقالة البيان واشياعة من يقول ان المسيح انسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جـــوهره وان ابتداء الابن من مريم وانه اصـــطفى ليكون مخلصا لجوهر الانسى صحبته النعمة الالهية وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ولذلك سمى ابن الله ويقولون الله جوهر قديم واحد واقنوم واحد ويسمونه بثلاثة اسماء ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القـــدس وهى مقـــالة بولس الشمشاطى بطريرك انطاكية وأشياعة وهم البوليقانيون ومنهم من كان يقول انهم ثلاثة آلهـــة لم تزل صالح وطالح وعدل بينهما وهى مقـــالة مرقيون ومنهم من كان يقول بالوهية المسيح وهى مقالة بولس الرسول الذى وضع البذور الأولى لألوهية السيد المسيح اجتمع أولئـــك المختلفون وانحاز الامراطور الى رأى بولس وصدر القرار التالى :

« ان الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحـــرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجود فيه ، وانه لم يوجد قبل أن يولد وانه وجد من لا شىء أو من يقول أن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب وكل من يؤمن من انه مخلوق أو أن يقول انه غير قابل للتغيير .

وبذلك قرر هذا المجمـــع الوهية عيسى وانه من جوهر الله قـــديم بقدمه وانه لا يعتريه تغير ولا تحول وفرضت تلك العقيدة فرضا على المسيحيين قاطبة مؤيدة بسلطان قسطنطين الوثنى لأنه ما كان مســـيحيا

اثناء انعقاد المؤتمر ولكنه انحاز الى الفريق الذى هو اقرب الى الوثنية والتى تناسب عقائده ولقد فرض المجتمع نفسه حكومة وجماعة اكهنوتية تلقى على الناس أوامر الدين وعليهم أن يطيعـــوا راغبين أو كارهين وقرروا أن تعاليم الدين لا يتلقونها من كتب المسيحية رأسا بل لابد من تلقيها من أفواه أولئك العلماء ورجال الكهنوت . ووضع بذلك قانون الايمان النيقاوى القسطنطينى الذى يقول : أؤمن باله واحد الله الأب ضابط الكل خلاق السماء والأرض وأومن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور نور من نور اله حق مولود غير مخلوق مساو للأب فى الجوهر الذك به خلــق كل شىء . الذى من أجلنــا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن العذراء مريم وتانس وصلب على عهد بيلاطس النبطى وتألم وتبر . وفى اليوم الثالث قام حسب الكتب وصعد الى السماء وجلس عن يمين الأب وسيأتى أيضا فى مجده ليدين الأحياء والأموات الذى ليس لملكه انقضاء وأومن بالروح القدس الرب معطى الحياة المنبثق من الأب تعبده وتمجــده مع الأب والابن الناطق فى الأنبياء وبكنيسة واحدة جامعـــة رســولية ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وننتظر قيامة الأموات وحيـــاة الدهر الآتى .

ولما وجدوا أن هناك تعارضا ين التوحيد القائلة به التوراة وهذا التثليث صدر القانون الاثناسيوسى الذى جاء فيه :

الايمان الجامع هو أن نعبد الها واحد فى ثالوث وثالوثا فى وحدانية لا نخلط الأقانيم ولا نفصل الجـوهر فان للأب اقنــوما على حدة وللابن اقنوما آخر وللروح القدس اقنوما آخر ولكن لاهوت الأب والابن والروح القدس كل واحد والمجد متساو والجلال ابدى معا .

يقول صاحب البراهين العقلية مفسرا هذا بأنهم يعبدون الها واحدا بالنسبة لجوهره فى ثالوث بالنســبة لأقانيمــه وثالوثا من الأقانيم فى وحدانية الجوهر لا يخلطوا الأقانيم لأن كلا منهم قائم بداته ولا يفصلوا الجوهر لأنه كله واحد .

وكل من الأب والابن والروح القدس تتقاسم الأعمال فيما بينها وتقوم بتدبير الكون يقول الدكتور يوسف بوست « طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الله الأب الله الابن والله الروح القدس فالى الأب ينتمى

الخلق بواسطة الابن والى الابن الفداء والى الروح القدس التطهير غير ان الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال الالهية على السواء .

كما أن الثلاثة اقانيم متلازمة لذات الخالق يقول القس بولس سباط « يرى النصارى ان البارى تعالى جوهر واحد موصوف بصفات الكمال وله ثلاث خواص ذاتية كشف المسيح عنها القناع وهى الأب والابن والروح القدس ويشيرون بالجوهر الذى يسمونه البارى ذا العقل المجرد الى الأب وبالجوهر نفسه الذى يسمونه ذا العقل العاقل لذاته الى الابن والجوهر عينة الذى يسمونه ذا العقل المعقول لذاته الروح القدس ويريدون بالجوهر ما قام بنفسه مستغنيا عن الطرف » .

والمسيحيون يستدلون على الوهية الروح القدس بما جاء فى كتبهم المحرفة فيقول القس بوطر « ومن حيث أقنومية الروح القدس فظاهر من كلمة الله يقول : لكنهم تمردوا وأحزنوا روح قدسه فتحول لهم عدوا وهو حاربهم « ويقول الرسول بولس لا تحزنوا روح الله القدس . ومن المعلوم أنه ان كان الروح قوة أو صفة أو شيئا من الاشياء الغير عاقلة لا يمكن أن يحزن أو يفرح فلا بد أن يكون اقنوما . ثم نقرأ فى سفر الأعمال أن الروح قال للرسل : افرزوا الى برنابا وشاؤل للعمل الذى دعوتهما اليه . ويقول مفيد كامل « كما أعلن الكتاب المقدس الوهية الأب والوهية الابن فقد أعلن أيضا الوهية الروح القدس اذ دعاه باسماء وألقاب الهية ووصفه بأوصاف ونسب اليه أعمالا لا يجوز أن تنسب الا الى الله وحده .

ويقول الأب الياس مرقص « عديدة هى آيات الكتاب التى يستنتج منها لاهوت الروح القدس أو صفاته الالهية » وما يستدلون عليه لألوهية الروح القدس باطل لأنه ورد ذكر الروح القدس فى القرآن والانجيل والتوراة حاملا لثلاث معانى :

أولهما : الروح القدس بمعنى القوة التى تحدث الحياة فى الكائنات الحية قال تعالى « **ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا** » (التحريم : ١٢) وقال تعالى « **اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** » (ص ٧١ : ٧٢) .

وتقول التوراة : وجبل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفسه نسمته حيلة فصار آدم نفسا حية » (تك ٢ : ٧) .

وثانيهما : وردت روح الله بمعنى القوة التى يبعثها الله لتاييد أنبيائه المكافحين وشد أزر عباده المخلصين فالله يؤيد أنبياءه والمؤمنين به بروح من عنده وبقوة من لدنه تمكنهم من أداء رسالتهم ومواصلة كفاحهم .

يقول تعالى : « **اذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا** » المائدة : ١١٠) .

ويقول السيد المسيح « روح الرب على لأنه مسحنى لأبشر المساكين » (لو ٤ : ١٨) وتحدثنا التوراة ان روح الله حل على داود عليه السلام يقول داود : « روح الرب تكلم بى وكلمته على لسانى » (٢ ص ٢٣ : ١) .

وثالثهما : بمعنى جبريل عليه السلام .

« **نزل به الروح الأمين** » (الشعراء : ١٩٣) .

« **وقد أيدناه بروح القدس** » (البقرة : ٨٧) .

والروح القدس هو الروح الطاهرة الروح المبارك ذلك أن القدس فى اللغة معناها الطهر أو البركة ومن هنا فقد أطلق الروح على ملاك الله جبريل عليه السلام فكلمة روح الله القدس تطلق ويراد منها القوة التى تحدث الحياة فى الكائنات وتطلق ويراد بها القوة التى يؤيد بها الله الرسل والصالحين وتطلق ويراد بها جبريل عليه السلام . فدعواهم أن روح القدس روح الله الجوهرية أى حياته الأزلية أمر مخالف لجميع كتب الله وانبيائه . فلم يفسر أحد منهم روح القدس بصفة الله لا جوهرية ولا غير جوهرية ولا قديمة ولا غير قديمة ولا أرادوا بذلك حياة الله وقد يتبادر الى الذهن أن أصحاب الثالوث قد اتفقوا عليه والتفوا حوله وآمنوا به فى جملته وتفصيله وفى عناصره وأقانيمه ولكن الواقع أن أصحاب الثالوث قد اختلفوا وتفرقوا وتعددت بهم السبل وخرج كل منهم برأى فى الثالوث وأقانيمه ولذلك نجد أن عقيدة الثالوث والتجسد اجتازت أربعة مراحل أساسية حتى وصلت الى ما هى عليه الآن .

مراحل تطور عقيدة الثالوث :

(أ) المرحلة الأولى :

وتبدأ هذه المرحلة من بعثة السيد المسيح عليه السلام وحتى ما قبل انعقاد مؤتمر أو مجمع نيقية عام ٣٢٥ م . فلقد جاء عيسى عليه السلام برسالة سماوية تنادى بالتوحيد داعيا بنى اسرائيل الى عبادة الله والى ترك ما انغمسوا فيه من شرور وآثام يقول المسيح « لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة » (مت ١ : ٢٤) مانعا تلاميذه من تبشير الأمم الأخرى فيقول لهم « الى طريق أمم لا تمضوا والى مدينة للسامريين لا تدخلوا . بل اذهبوا الى خراف بيت اسرائيل الضالة » (مت ١٠ : ٥ : ٦) .

ولكن دعوة المسيح بين اليهود لم تجد لها أرضا صلبة فرموه بأقذع الصفات ثم دبروا مؤامرة لصلبه لولا أن احبط الله مؤامرتهم . وبعد موت المسيح اتبع الحواريين نهج المسيح ولكن لما دخل بولس المسيحية وهو يهودى من أهل طرسوس مركز الديانات الوثنية أدخل الكثير من العادات الوثنية الى الديانة المسيحية لهدم المسيحية من الداخل كما هو عادة اليهود على مر الزمان ولكى يتمكن أيضا من اقناع اتباع الديانة الوثنية بالدخول فى الدين الجديد . يقول بولس « استعبدت نفسى للجميع لكى اربح الكثيرين فصرت لليهودى كاليهودى لأربح اليهود وللناموسيين كالناموسيين كأنى تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس ولغيرهم كأننى بغير ناموس » (أكو ١٠ : ٢٠) .

هكذا يتغير بولس ويتلون ويتحول مع كل اتجاه انه يدعى لليهودى انه يهودى وللناموسى كأنه ناموسى وذلك ليرضى جميع الطوائف ولم يهتم بولس بتوسيع فكرة عيسى الأصلية وتنميتها وهى فكرة ملكوت السماء ولكنه علم الناس أن عيسى لم يكن المسيح المدعو فحسب بل انه ابن الله نزل الى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيرا عن خطايا البشر (٢ تى ١ : ١٥) .

وهكذا بمرور الوقت وتعاقب الأجيال أخذت الأحكام الالهيه تتغير لتحل محلها احكام ارضية وأخذت الحقائق تتباعد لتفسح الطريق للاوهام واختلط ما جاء به عيسى مع وثنية الشعوب .

يقول القس بولس الياس اليسوعى « لقد لقحت الكنيسة الفكر الوثنى بالفكر المسيحى فحمل مرسلوها الى اليونان حكمة التوراة وآداب الانجيل واخذت منهم وضوح التعبير ودقة التفكير فنتج عن هذا التلاقح تراث جديد نقلوه الى روما . ولقد احترمت الكنيسة تقاليد الشعوب وحافظت على تنوع الطقوس فى مختلف الطوائف فما فرضت صيغة موحدة للصلاة .

لقد مزجوا الوثنية بتعاليم المسيح السماوية وهكذا تطعمت المسيحية بالوثنية التى كان يدين المصريون والرومان بها واليونان والفرس والهنود ولذلك انقسم المسيحيون الى طائفتين طائفة أشركت بالله وطائفة حافظت على التوحيد وكل طائفة من هاتين الطائفتين ضمت تحت لوائها فرقا كثيرة .

بعض الطوائف التى اشركت بالله :

١ — فرقة المرقيونيين او المريميين وهى تنسب الى مرقيون قسيس من من رجال القرن الثانى الميلادى ويقوم مذهبه على الاعتقاد بوجود الهين أحدهما الاله الذى اتخذ من بنى اسرائيل شعبا مختارا وانزل عليهم التوراة والآخر الاله الذى ظهر متمثلا فى المسيح وخلص البشرية من خطاياها ولعل هذا المذهب متأثرا بالزرادشتيه التى تعتقد بوجود الهين اله للخير وهو اهورا مزدا واله الشر وهو اهريمان .

١ — فرقة البربرانية وهى تذهب الى القول بالوهية المسيح وامه يقول ابن البطريق عن هذه الفرقة « ومنهم من كان يقول أن المسيح وامه الاهان دون الله وهم البرابرانية ويسمون الريمتيين .

٣ — فرقة اليان : يذكر الشهرستانى ان هذه الفرقة كانت تؤله المسيح وتقرر انه ابن الله وتصور حقيقته وحمل امه به . وقصة صلبه فى صورة خاصة فتذهب الى أن مريم لم تحمل به كما يحمل النساء وانما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميذاب لأن الكلمة الابن دخلت من اذنها وخرجت لتوها من حيث يخرج الولد . وان ما ظهر من شخص المسيح انما هو خيال شبيه بالصورة التى تظهر فى المراة فلم يكن المسيح جسما كثيفا فى الحقيقة وكذلك القتل والصلب فانهما وقعا على الخيال والظن لا على الحقيقة .

٤ — فرقة التثليث وهى الفرقة التى تذهب الى أن الاله ثلاثة اقانيم الأب والابن والروح القدس .

وهناك فرق اخرى مثل الابيونيين والمرسيونيين والأعنوسيين والسابليين والدوسيين . والبلنسيين والكربوقراسيين والراكوزيين والأطاخيين .

وهذه الفرق جميعا كان لكل منها انجيل يبشر به وجميعها انقرضت فى نهاية المرحلة التى نتكلم عنها ولم يبقى الا فرقة التثليث .

بعض الفرق التى حافظت على التوحيد :

١ — فرقة اليون . أو الابيونيين وهى الفرقة التى تقر جميع شرائع موسى وتعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه التوراة وتنكر الوهيته عيسى وتعتبره مجرد بشرا رسولا . وقد تم انقراض هذه الفرقة فى أواخر القرن الرابع ولقد اتخذت هذه الفرقة انجيل لها وسمته انجيل العبريين وانشق من هذه الفرقة كيرنثوس وكون مدرسة مزج فيها اليهودية بالغنوصية وأصبح اسم اتباعه الكيرنثيون وفسروا التجسد بانه اتحاد ظاهرى بين يسوع المولود ولادة طبيعية والمسيا غير المنظور . وان هذا الاتحاد انفك بعد تأدية رسالته . كما انهم يرفضون الايمان بالقيامة التى يقول بها المسيحيون ويرفضون الأناجيل ما عدا متى ويرفضون بولس ويقولون عنه انه مرتد عن الناموس ويحفظون الختان وكل شرائع التوراة .

وبوجه عام تنقسم الغنوصية المسيحية الى ثلاث مدارس : وهى مدرسة الاسكندرية وكانت صبغتها افلاطونية وائمتها باسيليدس وفالنتينوس — اوفيتس .

ومدرسة سوريا وائمتها ساتورنينوس . بارديان — تاتيان ومدرسة ثالثة وامامها مارقيون .

ولكن حسب التقسيم اللاهوتى يمكن تقسمها الى ثلاث مدارس وهى : المدرسة الأولى وهم السيمونيون اتباع سيمون . والنيقولاويون اتباع نيقولاوس ولانيتيون والمانيون .

والمدرسة الثانية وهم الكيرنيثيون والكليمانيون ثم اتباع باسيليدس واتباع فالنتين .

والمدرسة الثالثة وهم اتباع ساتورنينوس — تاتيان — انكراتيس — ويمكن تقسيمها ايضا بالنسبة لمنهجهـا الفكرى والأخـلاقى الى تأمليـة ثيوصوفية — مزجت اللاهوت بالخبرة الباطنة وزعمـاؤها باسيليدس — فالنتين — مارقيـون — ساتورنينوس — تاتيان واباحيـة منحلـة وهم السيمونيون — قيقولاويون . ولقد ركزت الغنوصية المسيحية على لاهـوت المسيح العقلى حتى لاشت ناسوتة وهم يؤلون عقائد المسحية تبعا لمذاهبهم.

والغنوصية المسيحية بوجه عام تنكر الوهية المسيح وتعتبره بشر وهو ابن يوسف النجار ولا يؤمنون بالقيامة ولا بالخلاص والفداء الذى تم على الصليب .

والحقيقة أن الغنوصية فى اصلها أصحابها افلاطونيـون فى جملتهـم وكانت المعرفة عندهم ليس العلم بواسطة المعـانى المجردة بالاسـتدلال كالفلسفة وانما هى العرفان الحدسى التجريبى الحاصل على اتحاد العارف بالمعـروف وغايتهـا هى الوصـول الى عرفان الله على هـذا النحـو . فالغنوصية صوفية تزعم انها المثل الأعلى للمعرفة وأراء الغنوصية الرئيسية المشتركة بين جميع فرقها ان فى قمة الوجود الله الموجود المفارق اللا مدرك صدرت منه أرواح يسمونها أيونات صدرت زوجا زوجا ذكرا وأنثى متضاءلة فى الألوهية كلما بعدت عن المصدر فأراد أحد هذه الأيونات أن يرتفع الى الى مقام الله فطرد من العالم المعقول وعن هذا الأيون الخاطىء صـدرت أرواح شريرة مثله وصدر العالم المحسوس الذى يكن ليوجد لولا الخطيئة لأنه عالم شر .

فجاء الفنوصين المسيحيين وحاولوا أن يؤلوا المسيحية حسب عقـائدهم هذه فوضع باسيليدس بعد الله (الأب) ثمانى مجردات مشخصة صدر بعضها عن بعض الواحد تلو الآخر منها الحكمة والعـدالة والسـلام . والملائكة الأول الصادرين عن الحكمة صنعوا السـماء الأولى والملائكـة الصادرين عنهم صنعوا السماء الثـانية وهكذا على التوالى حتى ٣٦٥ سماء . أما فلنتين فكان يرى أن الحياة الالهية أنتشرت بصدورات مزدوجة لا مفردة فيضع الشهوة فى الملائكة ليتزوجون ويلدون أيونات أخرى فيها شهوة والأيون الأخير (صوفيا) لما وجد أن الأيونات ولدت بالتزاوج وأن

الآب ولد بمفرده أراد أن يحاكيه ناسيا أنه مخلوق وأن الآب غير مخلوق تولد شيئا مشوشا لا صورة له وأراد الآب أن يقضى على العمل المشئوم الذى عمله الصانع فأنزل المسيح من السماء فالمسيح لم يولد من العــذراء بل ظهر فى شبه جسم لأن المــادة رديئة ولأنها ملك الصانع لأنهم يقولون بصانع للعالم مغاير الله . فالفنوصية المسيحية تؤمن بالهين واحد علــوى والآخر سفلى وعالمين واحد علوى وآخر سفلى وتؤمن بوجود وسيطين واحد بين الاله العلوى والعالم العلوى والثانى بين الاله السفلى والعالم السفلى كما تؤمن أن المسيح أقنومين واحد روحانى علوى وواحد مادى سفلى اتصلا بعد الولادة وافترقا قبل الصلب .

٢ ــ فرقة بولس الشمشاطى اسقف أنطاكية (٢٦٠ م) .

وقد انكر بولس الشمشاطى وفرقته الوهية المسيح ويقولون « ان المسيح انسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره وان ابتداء الابن من مريم ويقولون ان الله جوهر واحد واقنوم واحد ولا يؤمنون بالكلمــة ولا بروح القدس . ولقد انعقد مجمعا فى انطاكية خلع الرجل من منصبه عام ٢٦٨م .

٣ ــ فرقة مقدونيوس وكان بطريكا فى القسطنطينية وكان يقــول بالتوحيد المجرد وأن عيسى عنده نبى رسول كسائر الأنبياء .

وقد أنكر مقدونيوس لاهوت الروح المقدس قائلا : ان الروح القدس عمل الهى منتشر فى الكون وليس اقنوما متميزا عن الآب واعتبره مخلوقا يشبه الملائكة وان كانت رتبته اسمى وقد عقد مجمعا بالقسطنطينية سنة ٣٨١م وحرموا هذا القول(٤) .

٤ ــ القروبيســك :

وهؤلاء ظهروا فى مصر وكانــوا اولا من محاربى الوهيــة الابن ثم انفصلوا عنهم عام ٣٥٨ الا انهم بقوا ينكرون لاهــوت الروح القــدس وقد عمل أثناسيوس الكبير بطريك الاسكندرية على القضاء عليهم فقــام مجمع محلى فى الاسكندرية عام ٣٦٢ وحكم عليهم محرما الذى يقولونه بأن الروح القدس مخلوق ومفصول عن جوهر المسيح وكانت هذه الطائفــة تقول ان الروح القدس ليس لها كالآب والابن وليس من جهور وطبيعــة الآب والابن وليس شبيها بالابن لكنه من الكائنات التى أوجدت من العــدم

انه خليفة هو ملاك بين الملائكة وان كان ارفع بدون شك واكثر كمالا من بقية الملائكة ولكنه لا يختلف عنهم الا فى الدرجة وهو مثلهم احد الأرواح الخادمة المذكورة فى الكتاب المقدس :

٤ — فرقة اريوس او الاريرسيون او الاريانية :

اريوس قسيس فى كنيسة الاسكندرية ليبى الأصل ، ولد عام ٢٧٠م وتوفى عام ٣٣٦م ونادى بأن المسيح ليس الاها ولا ابنا له وانما هو بشر مخلوق وانكر ما جاء فى الاناجيل من العبارات التى توهم الوهية المسيح وكان يقول « ان الله واحد فرد غير مولود ولا يشاركه شىء فى ذاته تعالى فكل ما كان خارجا عن الله الأحد انما هو مخلوق من لاشىء بارادة الله ومشيئته اما الكلمة فهو وسط بين الله والعالم كان ولم يكن زمان لكنه غير أزلى ولا قديم بل كان مدة لم يكن فيها الكلمة موجودا فالكلمة مخلوق بل انه مصنوع واذا قيل بانه مولود فبمعنى الله تبناه ويؤدى ذلك الى ان الكلمة غير معصوم ولكن استقامته حفظته من كل خطأ ولذلك فهو دون الله مقاما ولو كان معجزة الاكوان خلقا بلغ من الكمال ما يستحيل معه خلق شىء اكمل منه رتبة وجمال » ثم يقول : « فالآب وحده الاله الأصلى الواجب اما الابن والروح القدس فهما كائنان خلقهما الله فى الازل يكونا وسيطين بينه وبين العالم وهما متشابهان فى الجوهر ولكن ليس واحدا منهما فيه وانه لا فضل ولا قيمة للابن والروح القدس الا بما تفضل به الآب عليهما » فمذهب اريوس يقوم على اساس انكار اللاهوت فى المسيح وتصوره انسانا محصنا مهما كان عظيما وان الله خالق كل شىء بما فى ذلك الكلمة والروح القدس .

ولقد انقسم اتباع اريوس الى فئتين غلاة ومعتدلة اما الأولون فرفضوا الاعتراف بالمسيح الها رفضا تاما ولم يكتفوا بقولهم انه ليس كلمة الله بل اعلنوا انه ليس شبيها به تعالى مستخدمة لذلك اللفظية اليونانية « انوميوس » فعرفوا بها وسموا الانوميين اى نفاة التشبيه اما المعتدلون فبدلوا لفظة « هموسيوس » اى المتساوى فى الذات والجوهر اللفظة « هميوسيوس » اى المتشابه فى الذات والجوهر التى اطلقوها حينئذاك على المسيح بعد اعترافهم بأنه كلمة الله فعرفوا بالهميوسيين اى مثبتى التشبيه فى الذات والجوهر على انهم لم يلبثوا ان تحولوا الى رأى آخر فقالوا ان الكلمة شبيه بالآب فقط واسقطوا من اصطلاحهم هميوسيوس الأصل الثانى « اوسيا » الذى يدل على الذات

والجوهر محتفظين بالأصل الأول هميوس الدال على مجرد الشبه فعرفــوا بالهوميين مثبتى التشبيه .

ب ــ المرحلة الثانيــة :

وتبدأ هذه المرحلة من عام ٣١٣م أى قبل انعقاد مجمع نيقية وتستمر حتى عام ٣٨١م وهذه هى مرحلة المناظرات حول سر الثالوث والتى اثارتها شخصية المسيح الها وانسانا فى آن واحد كما تعتبر هذه المرحلة مرحلــة البحث عن افراد الثالوث فكان اول الثالوث هو الله جل جلاله لأن المسيحية ديانة سماوية الأصل وهى وليدة اليهودية واليهودية كانت تقول بالتوحيد وكل هذا جعل من اللازم الاعتراف بالله وبدأ المسيحيون بعد ذلك يبحثون عن الالهين الآخرين وهما الابن والروح القدس . أما الاله الأول فقد كان بولس قد وضع بذرته بتعليمه للناس أن عيسى ابن الله نزل الى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيرا عن خطايا البشر وهكذا وضع بولس بذرة الوهية المسيح وصادفت البذرة ارضا خصبة فى عقول الذين لهــم معرفة بالفلسفات والاتجاهات التى سبقت المسيحية وساعد على نمــو هذه الأفكـــار ما صادفــه المسيحيون الأول من الاضطهــادات المدمــرة التى التهمت الكثير من مراجعهم وقضت على اتباع المســيحية الحقيقيين أو كادت وقد استمرت هذه الاضطهادات ثلاثة قرون فقدت المسيحية فيها طابعها من كثرة ما تاثرت بالثقافات المختلفة والخرافات المتعددة وخرجت الى الناس بعد هذه المــدة وبعد تلك الأجيال وفيها تناقض ظاهر فى تعليمها واشد انواع التناقض ما اتصل بالسيد المسيح كما رأينا سابقا فالبعض يراه رسولا والبعض يراه الها الى غير ذلك . ولكن فى مجمع نيقية تقــرر الوهية المسيح واصبح هو الاله الثانى فى الثالوث .

لقد تقرر فى مجمع نيقية (٣٢٥م) أن المسيح اله وابن اله وانه جوهر قديم من جوهر الآب ولم يتعرض هذا المجمع للروح القدس أهو اله أم روح مخلوق ولذلك ظهرت افكار بن المسيحيين لا تعترف للروح القدس بالالوهية ولقد اخذ يجاهر بهذا القول مقدونيوس بطريرك القسطنطينية وكان يقول الابن والآب فقط هما جوهر واحد أما الروح القدس فهو مخلوق مصنــوع فالله عند هذه الفرقة مكونا من اقنومين فقط وان الالوهية مقصــورة فقط على الآب والابن دون الروح القدس ويظهر ان الاسكندرية مهد الافلاطونية الحديثة التى تقول بالتثليث وان المسيطر على العالم ثلاث قوى هى قوه المكون الأول (الله) والعقل (الابن) والنفس العامة (الروح القدس)

أرادت أن تفرض ذلك فرضا على المسيحية فاجتمع فى القسطنطينية (٣٨١م) خمسون ومائة أسقف وكان المقدم فيها بطريرك الاسكندرية وكان رايــه هو الذى أجمع عليه المجتمعون « قال ثيموثاوس بطريق الاسكندرية ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله وليس روح الله شيئا غير حياته فاذا قلنا ان روح القدس مخلوق فقد قلنا ان حياته مخلوقة واذا قلنا ان حياته مخلوق فقد زعمنا أنه غير حى واذا زعمنا انه غير حى فقد كفرنا به ومن كفر به وجب عليه اللعن » .

لقد قدم ثموثاوس قياسا على هيئة الاقيسة المنطقية ولكنه فى الحقيقة بعيدا عنها فمقدماته غير مسلم بها ونتائجه غير مرتبة فمقدماته ان روح القدس هى روح الله مقدمة ساقطة لا يوافق عليها أغلب الناس ولا يستطيع أن يقيم الدليل عليها فالعقيدة السائدة الصحيحة هى أن روح القدس خافة الله واتخذه ليكون رسولا بينه وبين من يريد أن يلقى عليه وحيا من خلقه فهى ليست روح الله المتعلقة بذاته وليس عند بطريرك الاسكندرية دليل على ما قال ولكن هكذا ساق السلسلة وهكذا اقتنع سامعوه وبذلك تم الاقرار بالوهية الروح القدس وتم بذلك تعيين جميع أفراد الثالوث .

ويقول ابن البطريق فى بيان قرارّ هذا المجمع « زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا الذين اجتمعوا فى نيقية الايمـــان بروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب الذى هو مع الأب والابن مسجود له وممجد واثبتوا الأب والابن والروح القدس ثلاثة أقانيم اله واحد جوهر واحد طبيعة واحدة . ولم يكتف بعض رجال الكنيســـة أن يكون الروح القدس منبثقا من الاب بل عقدوا مجمعا آخر فى طليطلة وقرروا أن الروح القدس منبثق من الابن ايضا ولا تزال عبـــارة ومن الابن أيضــا موضع خلاف بين الكنيسة اليونانية التى لم ترضى بهـــذا الوضع وبين الكنيسة الكاثوليكية أما الكنيسة القبطية بمصر فانها تؤمن بأن روح القدس منبثق من الأب فقط متمسكة بما قاله اثناسيوس الرسولى « ان لنا الها واحد وهو الأب الذى لا بداية له وهو بداية الأشياء كلها لأنه منه ولدت الكلمة وانبثق الروح القدس .

(جـ) المرحلة الثالثة : .

وهى متداخلة مع المرحلة الثانية لانها تبدأ من عام ٣٤١ م وحتى عام ٤٣٠ م وهى فترة الآباء الشراح الذين اقبلوا على الكتب المقدسة ولا سيما

رسائل بولس ليستنتجوا منها تعاليم المسيحية فالواقع أن بولس لا المسيح هو مؤسس المسيحية وواضع لاهوتها فما جاء المسيح كما تصرح الاناجيل ليقيم دينا جديدا يحمل لسمه فما جاء لينقض الناموس وانما جاء ليتمم ولكن بولس عزل المسيح عن اليهود وجعله مسيحا غير الذى ينتظره اليهود وذلك لكى يستطيع أن يجعل من المسيح الاله الذى تجسد وصلب من أجل خلاص العالم لا اليهود وحدهم وبهذا ضمن لدعوته التحرك فى الامبراطورية الرومانية واستطاع بولس أن يمزج مبادىء اليهود الأخلاقية بعقائد اليونان فيما وراء الطبيعة وأوجد طقوسا خفية جديدة . لقد فتح بولس الباب للمسيحية للقول بالتثليث وأصبحت رسائله كتابا مقدسا له ما للانجيل من قداسة واحترام وفى هذه المرحلة التى نتكلم عنها تناولها الشراح من علماء الكنيسة ورجال اللاهوت بالشرح والتحريج على كل وجه ممكن أو غير ممكن فكانت منها تلك الفلسفة اللاهوتية التى شغلت الكنيسة ولا تزال تشغلها حتى الآن . ومن أهدم الآباء الشراح فى تلك الفترة أميروزيوس فى الغرب (٣٣٣ — ٣٩٧) ويوحنا ذهبى الفم فى الشرق (٣٥٤ — ٤٠٥ م) . وهو عمل أدى الى نتائج ونظريات أتقن تنظيمها اغسطنيوس (٣٥٤ — ٤٣٠) وما برح عمله هذا هو المعين الأول الذى تستخدمه الكنيسة فى توجيهاتها وارشاداتها حتى يومنا هذا .

— المرحلة الرابعة :

وهى المرحلة التى تبدأ من ٤٣٠ — ٤٦١ م وهى البحث عن سر التجسيد وهى فترة قصيرة ولكنها مهمة لأنها كانت المرحلة التى ظهرت فيها المناقشات حول شخصية المسيح أقنوما واحدا ذو طبيعتين أو طبيعة واحدة وهل له مشيئة واحدة وارادة واحدة أم مشيئتان وارادتان وهل هو أعظم أو أقل منه أو مساو له فى الدرجة ودارت فى هذه الفترة مناقشات حول زمن وتاريخ وجود الأقنوم الثانى هل هو أزلى أم أنه حادث وهل مولود أم مخلوق . وما طبيعة الصلة بين الطبيعتين الالهية والبشرية .

وبانتهاء هذه المرحلة تقرر التثليث وتجسد المسيح فى الديانة المسيحية وأصبحت العقيدة الرسمية التى يجب أن يعتنقها كل مسيحى وانقرضت المذاهب الأخرى سواء الموحدة أو اتباع الفرق الأخرى ولا نجد الآن كنيسة مسيحية لا تقول بالتثليث وتجسد الاله ولكنهم جميعا يستترون وراء كلمات التوحيد فيقولون تثليث فى وحدية أو وحدية فى تثليث مع أنه لا يمكن الجمع بين الاثنين كما ذكرنا سابقا .

والدارس المتتبع لمراحل تطور العقيدة المسيحية يتبين له انها عقيدة لم ينزل بها كتاب مقدس ولا قال بها عيسى ولا حوارييه ولكن واضـــع بذورها هو بولس وجاءت قررات المجامع وشروح اباء الكنيسة الأوليسين لتضع أساس التثليث وتفرضه على الناس بالقـــوة ولكن هل انتهى دور هذه المؤتمرات أن المؤتمرات المسيحية مازالت حتى الآن تجتمع لتقرر وتفرض أشياء جديدة تدخل الى العقيدة المسيحية او تحذف منها تلك المجامع التى قال عنها لوثر « ما لم اقتنع بشهادة الكتاب او الحجـــة الواضـــحة اذا لا استطيع الايمان بما يقول الآباء والمجامع وحدها فمن الثابت أنها كثيرا ما تخطىء او تناقض بعضها البعض .

الفصل الثالث

الألوهية فى الاسلام

تمهيـــد :

يجدر بنا قبل أن نتحدث عن الألوهية فى الاسلام أن نلم المامة عاجلة بالوطن الذى هبط فيه الوحى المحمدى فهذه الالمامة ترينا الى أى مـــدى كانت هذه البقعة صالحة لتلقى تعاليم هـــذا الوحى والى أى مـــدى تاثرت أو كانت عرضة للتاثر بالأفكار المجاورة لها .

وقد وقعت الجزيرة العربية بين أعرق حضارتين عرفهما التاريخ وهما الحضارة المصرية القديمة وحضارة الرافدين فى العراق ولم تتوغل أى دولة مستعمرة داخل الجزيرة العربية وكانت الجزيرة العربية فى ذلك الحين من الممكن تقسيمها الى ما يأتى : ــ

ــ القسم الجنوبى وهو اليمن .

ــ القسم الشمالى ــ ويشمل صحراء الشام والبلاد الشمالية حتى فلسطين

ــ القسم الأوسط وهو نجد .

واليمن والقسم الشمالي كان من السهل أن يتصل بالحضارات التى كانت قريبة منه فاليمن اتصلت بالحبشة والعراق والهند بشمال الجزيرة أما نجد فكان من الصعب أن تصل اليه شىء من الحضارة أو الثقافة التى ازدهرت على جانبيه سواء فى بلاد الفرات أو بلاد النيل ولكنهم لم يكونوا فى عزلة تامة عن جيرانهم ولكن صلتهم بجيرانهم سواء فى الشمال أو الجنوب كانت صلة محدودة لا تؤهلهم للاستفادة من ثقافتهم وحضارتهم .

ولذلك ظلت هذه المنطقة فى تاخر حضـــارى بينمـــا كانت فى أطراف الجزيرة حضارات مزدهرة راقية .

ولو انهم اتصلوا بهذه الحضـــارات لتغيرت حيـــاتهم غير أن بيئتهم الصحراوية قضت عليهم بهـــذا التخلف . ولذلك تسربت النصرانيـــة الى الجزيرة من الشمال ومن الجنوب جميعا ولكن لم يتح لها أن تتوغل داخل الجزيرة وتسربت من الشمال عن طريق فلسطين ولكن لم تكن هنـــاك حركة منظمة تدفعها الى باطن الجزيرة وكان تجار مكة فى طريقهـــم الى سوريا بتجارتهم يمرون بأديرة الرهبان على تخوم الصـــحراء فى شـــمال

الجزيرة ولكن لم يعنهم دراسة المسيحية ولا اعتناقها لسببين :

اولهما : انهم كانوا يعتزون بديانتهم وكان معظم التجار من مكة ومن قريش وكان دخول دين جديد يهدد مكانتهم الاجتماعية ولهذا اثروا وثنيتهم .

وثانى الامرين ما فى المسيحية من تعقيد وما بين فرقها من اختلافات فى ذات المسيح وذلك لا يسهل فهمه على العقل الساذج فهى فلسفة لا يقوى على هضمها الكثيرون .

اما من الجنوب فقد وفدت المسيحية من الحبشة وكان وفودها من الجنوب حركة منظمة ادت اليها دوافع سياسية ومنذ عام ٥٠ م صارت مدينة نجران مركزا للمسيحية وكانت تتبع المذهب المونوفستى (الطبيعة الواحدة) .

وكان التبشير المسيحي على عكس اليهودية نشيطا فكان القس فى الجنوب يغشون الاسواق يعلمون المسيحية ويدعون لها ولكنها لم تستطع النفاذ الى وسط الجزيرة وان كان فى الطائف بعض النصارى تسربت النصرانية اليهم من العراق وكان امية ابن ابى الصلت الشاعر نصرانيا .

وكان العرب امة بدوية لا تعرف القراءة ولا الكتابة الا اقلية نادرة عاشوا فى همجية ما عرفت قانونا يتحاكم اليه الا بعض من المبادىء التى تعارفوا عليها بينهم املتها عليهم الشهامة والمروءة والرجولة التى صاحبتهم فى ذهابهم وايابهم . فلم يكن للجزيرة العربية قانون موحد تسرى خطواته على قاطنيها وتطبق قواعده على قبائلها بكر وعيس وتغلب وذبيان وسواهم من القبائل التى انتشرت فى رحاب الصحراء من هنا وهناك بل لم تكن هناك سلطة تشريعية فى القبيلة الواحدة سوى ضمانات يأخذها الواحد على نفسه ويلتزم بها ويحافظ عليها .

ويقول ابن خلدون انهم امة وحشية اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب فينقلون الحجر من المبانى ويخربونها لينصبوه اثا فى القدر وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد .

وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون اليه وانما عمهم ما يأخذونه من أموال الناس نهبا . وهم متنافسون فى الرياسة وقل أن يسلم منهم الأمر لغيره ولو كان أباه .

ويقول أوليرى « ان العربى الذى يعد مثلا أو نمـوذجا مادى بنظر الى الأشياء نظرة مادية وصنعية ولا يقومها الا بحسب ما تنتج من نفع . يمتلك الطمع مشاعره وليس لديه مجال للخيال ولا العـواطف لا يميـل كثيرا الى دين ولا يكترث بشىء الا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية يملؤه الشعور بكرامتـه الشخصـية حتى ليثور على كل شـكل من أشـكال السلطة .

ويقول لامانس « ولكن العربى من ناحية أخرى مخلص مطيع لتقاليد قبيلته كريم يؤدى واجبات الضيافة والمحالفة فى الحروب كما يؤدى واجبات الصدقة مخلصا فى ادائها حسب ما رسمه العرف » .

ويرى بعض الباحثين انه لم يكن العرب قبل الاسلام معارف أو أى نظر عقلى يقول ابن خلدون وهم أبعد الناس عن العلوم لأن العلوم ذات ملكات محتاجة الى التعليم فاندرجت فى جملة الصنائع وهم أبعد الناس عن الصنائع لأنهم أعرق فى البدو وأبعد عن العمران الحضرى وما يدعـو اليها من الصنائع وغيرها فصار العرب أبعد الناس عن الصنائع وأبعد الناس عن العلوم .

ويقول الامام محمد عبده « وقد بلغ العرب من سخافة العقـل حدا صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها » .

ويقول أحمد أمين : وكان من تأثير حياة الصحراء فى عقولهم أن تأثرت حتى ثقافتهم وعقائدهم فبعدهم عن الحياة المستقرة لم يدع لهم فرصـة للتفكير العميق والتأمل الهادى مما جعلهم يقبلون على الخرافة ويتعلقون بالأساطير والا فأى علاقة يحكم بها العقل السليم بين تعليق عظام الموتى وبين الشفاء من الجنون وهل يمكن أن يقر العقل الناضج أن الكهانة والعرافة يمكن أن يكون من الوسائل الصحيحة للعلم بالغيب أنهم لم يكونوا يحسنون تعليل الحوادث ولا يربطون بأسبابها ربطا محكما » .

ويقول القاضى صاعد « فكل ما يدركون من معارف بأوقات مطـالع

النجوم ومغايبهاوعلم بانواء الكــواكب وامطــارها على ما ادركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على تعلم الحقائق ولا على سبيل التــدرب فى العلوم فهــم لم يكن لهــم علم ولا فلسفة ولا كتب موروثة كما يرى الجاحظ . ومظاهر الحياة العقليـــة فى الجاهلية هى الشعر واللغة والأمثال والتصــص اما العلم والفلســـفة فلا اثر لها عندهم .

وهناك بعض الباحثين يثبت للعرب فى الجاهلية نظر عقلى يشـــبه أن يكون نوعا من الفلسفة .

فجرجى زيدان يرى أن هؤلاء البدو « كانوا كبار العقول أهل ذكاء ونباهة واختبار وحكمة وأكثر معارفهم من ثمار قرائحهم وهى تدل على صفاء اذهانهم وصدق نظرهم فى الطبيعة وأحوال الانسان مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة فان قول زهير ابن أبى سلمى فى معلقته .

رايت المنايا خبط عشواء الى قوله وان خالها تخفى على النـــاس تعلم . لا يقل شيئا عن أحكام أكابر الفلاسفة . ويذهب الى هذا الرأى أيضا الدكتور مصطفى عبد الرازق بقوله « ان العرب عند ظهور الاسلام كانوا يتشبثون بانواع من النظر العقلى يشبه أن يكون من أبحاث الفلسفة لاتصالها بما وراء الطبيعة من الالوهية وقدم العالم أو حدوثه والأرواح والملائكة والجن والبعث ونحو ذلك « ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين الاسلامى فانهم لم يكونوا فى سذاجة الجماعات الانسانية الأولى من الناحية الفكرية ولكن الدكتور حجازى يرى أن هذه المعرفة لم تكن فلسفة فمعرفتهم بالنفس الانسانية ودعوتهم الى معرفتها سطحية ليس فيها تعمق فكرى ولا بحث عقلى . فهى ثقافة لم تكن شيئا جديرا بالذكر كما يرى دى بور .

اذن فالعرب فى الجاهلية لا أثر للمذاهب الفلسفية عندهم ولا نعتد بقول الذين يبحثون عن أبيات من الشعر الجاهلى ووجدت فيها خطرات فلسفية فيزعمون انها مذاهب فلسفية . فان هناك فرقا كبيرا بين المذهب الفلسفى والخطرات الفلسفية ، فالمذهب الفلسفى نتيجة للبحث المنظــم من توضيح للرأى والبرهنة عليه والنقض للمخالفين وهكذا وهذه منزلة لم يصل اليها العرب فى الجاهلية . أما الخطرة الفلسفية فدون ذلك لأنها

لا تتطلب الا التفلت الذهن الى معنى يتعلق بأصول الكون من غير بحث منظم وتحليل وتقييد وهذه درجة وصل اليها العرب .

هذه هى حالة العرب العقلية اما عن حالتهم الدينية وعقائدهم فقد صورها القرآن الكريم تصويرا دقيقا وذكر تلك الديانات التى كانت سائدة فى جزيرة العرب قبل نزوله .

يقول تعالى : ((**ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين اشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيـــامة ان الله على كل شىء شهيد**)) (الحج : ١٧).

ومن الآية الكريمة نلاحظ ان جزيرة العرب لم تكن كلها وثنيـــــة فكان هناك يهود ونصارى وصابئة ومجـــوس ومشركون على اختـــلاف وجهاتهم .

وكان اليهود موجودين بيثرب وفى يتماء وفى فدك وفى خيبر وفى وادى القرى وهم يهود نزحوا الى الجزيرة العربية بعد أن حطم تيطس الهيكل (٧٠م) أو عرب تهودوا . واليهودية حلت فى جزيرة العرب بعد أن تأثرت بالثقافة اليونانية تأثرا كبيرا فهؤلاء اليهود كانوا يتعبدون على بقايا ملة موسى بعد تحريفها واختلاطها بالفلسفة اليونانية .

وكان نصارى العرب يعبدون الله على ملة عيسى بن مريم عليـــه السلام بعد تحريفها وكانوا فى ربيعة وغسان وبعض قضاعـــة ونجـــران والحيرة وكان النصارى فى جزيرة العرب اما نساطرة أو يعاقبة وقد حملت النصرانية الى الجزيرة العربية وهى تحمل فى ثناياها شيئا من الفلســـفة اليونانية فاصبحت ديانة ممزوجة بالفلسفة لانه فى العصور الأولى كما سبق أن ذكرت فى المسيحية أن الكثير من آباء الكنيســـة كانوا فلاســـفة قبل أن يكونوا رجال دين لانهـــم رأوا من الضرورى أن يؤيدوا أنفســـهم وعقائدهم امام الوثنيين فلجأوا الى الفلســـفة يســـتمدون منها التعليل والبرهان فتسربت الى النصرانية فلسفة ارسطو وافـــلاطون وغيرها . وكان تأثير النصرانية داخل الجزيرة العربية محـــدودا . اما المجـــوس الثنوية الذين اثبتوا للعالم أصلين مدبرين وهما اله الظلمة واله النور فقد سكنوا تميم .

اما الصابئة عبدة الكواكب الذين يرون انه لمعرفة الله ومعرفة احكامه لا بد من وجود متوسط وهذا المتوسط لا بد ان يكون روحانيا لا جسمانيا فنزعوا الى هياكل الأرواح وهى الكواكب يعبدونها واشهر طائفة من الصابئة هم الحرنانية القائلين بأن الصانع المعبود واحد، وكثير اما الواحد ففى الذات والأول والأصل والأزل واما كثير فلأنه يتكثر بالأشخاص فى رأى العين وهى المدبرات السبعة والأشخاص الأرضية الخيرة العاملة الفاضلة فانه يظهر بها وليتشخص بأشخاصها ولا تبطل وحدته فى ذاته والخالق هو الذى ابدع الفلك وجميع الكواكب والاجرام وجعلها مدبرات هذا العالم وهم الآباء والعناصر امهات والمركبات مواليد والآباء احياء ناطقون يؤدون الآثار الى العناصر فتقبلها العناصر فى أرحامها .

فيحصل من ذلك المواليد ثم من المواليد قد يتفق شخص مركب من صفوها دون كدرها ويحصل له مزاج كامل الاستعداد فيتشخص الاله به فى العالم .

والصابئة يقولون بالتناسخ والحلول والتناسخ عندهم أن تتكرر الأدوار الى ما لا نهاية والثواب والعقاب فى هذه الدار لا فى دار اخرى .

والصابئة بجميع فرقهم يصلون ثلاث صلوات ويغتسلون من الجنابة ومن مس الميت ويحرموا اكل الخنزير والكلب ومن الطير ما له مخالب . والصابئة ينهون عن السكر وعن الاختتان والزواج عندهم يولى وشهود ولا يجوز الطلاق الا بحكم حاكم ولا يجمعون بين امرأتين .

اما الديانة التى كانت سائدة فى الجزيرة العربية والشائعة فيها فهى ديانة المشركين بالله وهم طوائف كثيرة منها :

طائفة انكرت الخالق والبعث مع الاعادة وهؤلاء اوضح القرآن الكريم وجهتهم فقال « **وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون** » (الجاثية : ٢٤) .

« **وقالوا ان هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** » (الأنعام : ٢٩) .

وطائفة ثانية آمنت بالله ولكنها تنكر البعث والاعادة « **أاذا متنــا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد** » (ق : ٣) .

وطائفة ثالثة أقرت بالخالق وقالت بحدوث العالم بنوع من الاعادة وأنكرت الرسل وعبدت الأصنام باعتبارها سفيعة عند اللــه فى الآخرة وعن هذه الطائفة حكى القرآن الكريم قولها بقوله « **الا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما فيه يختلفون ان الله لا يهدى من هو كذاب كفــار** » (الزمر : ١٣) .

وهناك طائفة رابعة من المشركين عبدوا الملائكة لتشفع لهم عند الله فزعموا أن الملائكة هم بنات الله وهم الذين أخبر عنهم القرآن الكريم فقال : « **ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشــتهون** » (النحــل : ٥٧) .

ولكن كانت هناك طائفة من العرب فى الجــاهلية أطلقت لبصرها العنان تلتمس دين ابراهيم عليه السلام وهم الحنفاء ومنهــم ورقة ابن نوفل الذى تعلم النصرانية ثم تحنف اذن فعندما جاء الاسلام الى الجزيرة العربية وجد أديانا محرفة ووجد مشركين يعبدون الأوثان ووجد مفكــرين وعقلاء أو حكماء ذوى ثقافة ولكنهــا ثقــافة لم تكن شــيئا جــدير بالذكر .

فهم كانوا مصلحين ومشرعين ولم يكونوا فلاسفة بمعنى الكلمــة لأن أكثر حكمهم من فلتات الطبع وكانــوا شرذمة قليلة . وكان مثلهم فى الحكمة مثل حكماء واليونان يقولون الحكم القصيرة التى تركزت فيهــا التجربة والحنكة مثل مقتل الرجل بين فكيه ومن طلب شيئا وجده وهذا قريبا من قول أفلاطون عن الحكماء : واجتمعــوا فى دلف داره وأرادوا أن يتقدموا لابولون فى هيكله بواكر حكمتهــم فاختصــموه بالآيات التى يرددها الناس مثل اعرف نفسك « لاتسرف »ولا صلاح عسير » .

فالاسلام جاء وعقول العرب مقيدة بالعقائد المتــوارثة عن الآباء والمكتسبة من البيئة والظروف الصحراوية فوضع جميع ما أخذه العرب موضع الاختيار ثم هداهم الى المنهج الصــالح فى الوصــول الى الحــق وهو البحث الحر والتأمل المطلق فى الكون وما فيه من نظام وابداع ثم

غذى عقولهم بواسطة الوحى بمعارف لا يستطيع ان يصل اليها العقل وحده .

وهكذا كان العرب قبل الاسلام لا ثقافة عندهم الا القدر الضئيل وجهلا بالدين الا بقايا من ملة ابراهيم .

ولقد كان العالم فى القرنين الخامس والسادس يتقاسمه تقريبا اربعة امبراطوريات الرومانية فى أوربا وآسيا وأفريقيا والامبراطورية الفارسية وتسيطر على جزء كبير من آسيا والامبراطورية الهندية والصينية تكاد تكونان مغلقتين على انفسهما ومعزولين بعقائدهما واتصالاتهما السياسية فكان ذو الأثر الحقيقى فى العالم هما الفرس والرومان وكانت اليهودية والمسيحية قد وقعتا فى صورة من الصور تحت نفوذ هاتين الدولتين .

فانتهت اليهودية كما نراها حاليا الى ديانة محرفة والمسيحية دخلتها اساطير الرومان الوثنية ومباحث الفلسفة الاغريقية فلم تعد المسيحية السماوية الأولى وانتهت المسيحية الى تطاحن المذاهب المتعددة وانقسمت الكنيسة الى كاثوليكية وارثوزكسية وغيرها وهؤلاء كانوا فى الانحراف عن حقيقة المسيحية سواء .

ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم على شفا جرف هاو من الفوضى كما يقول . ح . هـ . دينسون فى كتابة العواطف كأساس للحضارة .

وذلك لأن العقائد التى كانت تعين على اقامة الحضارة كانت قد انهارت وان البشرية أوشكت أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الهمجية .

ولأن العالم جميعه أصبح يعيش فى هذه الفترة من الزمان فى دياجير الظلام ويتبعون اباطيل من الشرائع ولأن العقول البشرية قد وصلت الى درك لا يليق من الجهالة ولأن أتباع الرسل تفرقوا من بعد ما جاءهم العلم ولم يتفرقوا عن جهل ولم يتفرقوا لانهم لا يعرفون الأصل الواحد الذى يربطهم ويربط رسلهم ومعتقداتهم وانما تفرقوا بغيا وحسدا ولأن الذين جاءوا من بعدهم تلقوا عقائدهم فى ريبة وشك اذ كانت الخلافات

السابقة مثار لعدم الجزم بشيء وللشك والغموض بين شتى المذاهب وما هكذا تكون العقيدة فالعقيدة هى الصخرة الصلبة التي يقف عليها المؤمن فتميد الارض من حوله وهو راسخ القدمين فوق الصخرة الصلبة التى لا تميد اما حين تصبح العقيدة ذاتها موضع شك ومثار ريبة فلا ثبات لشىء ولا لأمر فى نفس صاحبها ولا قرار له على وجهة ولا اطمئنان الى طريق .

من اجل ذلك جاء الوحى المحمدى ليبين ويقرر وحدانية الموحى وهو الله « **له ما فى السموات والارض وهو العلى العظيم فالله هو الموحى لجميع الرسل السابقين كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** » (الشورى : ٣) .

ووحدة الموحى به ووحدة المنهج والطريق فالموحى اليهم هم الرسل على مدار الزمن والوحى اليهم واحد فى جوهره مع اختلاف الزمن انها قصة بعيدة البداية ضاربة فى اطواء الزمان وسلسلة كثيرة الحلقات المتشابكة ومنهج ثابت الأصول على تعدد الزمن فما شرعه الله للمسلمين هو فى عمومه ما وصى به نوحا وابراهيم وموسى وعيسى وهو أن يتبعوا دين الله الواحد ولا يتفرقوا فيه .

العقيدة والشريعة فى الاسلام :

بعد أن توفى عبد المطلب جد الرسول عليه السلام تولى تربيته عمه ابو طالب وسافر معه الى الشام متاجرا قبل ان يبلغ الحلم وتقدم محمد نحو الشباب ولكنه كان طرازا فريدا لم يشرك اترابه فيما اعتادوا من لهو وعبث ولأمانته سافر الى الشام فى تجارة للسيدة خديجة فربحت تجارته ربحا عظيما فازداد ارتباط خديجة به وتوج هذا الارتباط بالزواج .

وكان كثيرا ما يخلو فى غار حراء يفكر فى الكون ومبدئه ونهايته وبذلك صفت نفس الرسول صلى الله عليه وسلم فاصبح لا يرى رؤيا الا وجاءت كفلق الصبح وظل الرسول صلى الله عليه وسلم يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل عليه السلام وقال له **اقرأ** .. وهذه الآيات لم تكلف محمد بدعوة ولم تخبره برسالة وبعد فترة من غياب جبريل جاءه وألقى اليه نداء ربه « **يا ايها المدثر قم فانذر** » (المدثر ١ : ٢) .

وادرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) بهذه الآيات ما يراد منـــه فهب ينذر الناس ويدعوهم للدين الجديد .

وتوالى نزول جبريل عليه السلام بالقرآن الكريم وبذلك تلقى محمد عن ربه الأصل الجامع للاسلام فى عقائده وتشريعه وهو القـــرآن الكريم والقرآن الكريم هو المصدر الأول فى تعرف التعاليم الأساسية فى الاســـلام ومن القرآن الكريم عرف ان الاســـلام له شقان اســـاسيان هما العقيـــدة والشريعة والعقيدة هى الجانب النظرى الذى يطلب الايمان به أولا وقبل كل شىء ايمانا لا يرقى اليه شك ولا تؤثر فيه شبهة والشريعة هى النظـــم التى شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ الانسان بها نفسه فى علاقته بربه وعلاقته بأخيه المسلم وعلاقته بأخيه الانسان وعلاقته بالحياة .

وقد عبر القرآن الكريم عن العقيدة بالايمان وعن الشريعة بالعمـــل الصالح .

« ان الذين آمنوا وعملوا الصـــالحات كانت لهم جنـــات الفردوس نزلا » (الكهف ١٠٧) .

« والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (سورة العصر) .

والعقيدة هى الأصـــل الذى تبنى عليه الشريعة ، والشريعـــة اثر تستتبعه العقيدة فلا وجود للاسلام الا بوجود العقيدة والعقائد الأساسية التى طلب الاسلام الايمان بها فكانت العنصر الأول من عناصره بينهـــا الرسول (ﷺ) فى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم والمعـــروف بحديث جبريل عليه السلام فقد ورد أن جبريل عليه السلام قد أتى النبى (ﷺ) فى صورة انسان ودخل على النبى عليه الصلاة والسلام وهو جالس بين أصحابه واسند ركبتيه الى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ثم سأله عدة أسئلة . سأله عن الايمان قائـــلا له ما الايمان فقال الرســـول عليه الصلاة والسلام : الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره .

ثم سأله عن الاسلام فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : الاسلام أن تشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله وتقيم الصـــلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا .

ثم سأله عن الاحسان فقال عليه السلام : الاحسان أن تعبد اللـــه كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ثم سأله عن الساعة فقال عليـــه الصلاة والسلام ما المسئول عنها بأعلم من السائل واخبره عن اشراطها .

فهذا الحديث الشريف قد جمع على ما اعتقد والله اعلم أصول العقيدة والشريعة .

فالعقائد الأساسية هى :

- الايمان بوجود الله ووحدانيته . (الالوهية) .
- الايمان بجميع الرسل وكتبهم الموحى بها .
- الايمان بالملائكة سفراء الوحى بين الله ورسله .
- الايمان بما تضمنته هذه الرسالات من البعث والجزاء ومن أصول الشرائع والنظم التى ارتضـــاها اللــه لعبـــاده . مما يناسب استعدادهم وتقضى به مصالحهم على الوجه الذى يكونون بـــه مظهر حقا لعدالته ورحمته وجلاله وحكمه .

هذه هى العقائد الأساسية فى الاسلام وهى اساس كل دين والدارس للالوهية على مر العصور يجد أن الامم مرت بثلاث أطوار عامة فى اعتقادها بالالهة والأرباب :

- دور التعدد وفيه كانت القبائل تتخذ لها اربابا تعد بالعشرات وقد تصل الى المئـــات .
- دور التمييز والترجيح وفيه تبقى الأديان على كثرتها ويأخذ رب منها بالبروز اما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لهـــا جميـــع القبائل واما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلبا اعظم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب الأخرى .
- دور الوحدانية وفيه توحد الأمة فتجتمع على عبادة واحدة بينها مع تعدد الأرباب فى كل اقليم من الاقاليم المتفرقة ويحدث فى هذا الدور ان تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها .

ثم جاءت الأديان الكتابية التى بلغت بالتوحيد غاية مرتقـاة فعلمت الناس شيئا فشيئا عبادة الاله الأحد الذى خلق الوجود من العدم ووسعت قدرته كل موجود فى السموات والأرض ولم يكن له شريك فى الخلق ولا فى القضاء ، ولكن الديانات الكتابية من يهودية الى مسيحية انحـرفت عن عبادة الله الواحد الى التعدد او التثليث كما سبق وان رأينا فى الفصـول السابقة على أيدى أصحابها فظهر الاسلام فى الجزيرة العربية فكان عليه أن يصحح أفكارا كثيرة لا فكرة واحدة عن الذات الالهية وكان عليـه أن يجرد الفكرة الالهية من اخلاط شتى من بقايا العبـادات الأولى وزيادات المتنازعين على تاويل الديانات الكتابية .

« ولقد كانت فكرة الله فى الاسلام هى الفكرة المتممة لأفكار كثيرة موزعة فى هذه العقائد الدينية وفى المذاهب الفلسفية التى تدور عليها ولهذا بلغت المثل الأعلى فى صفات الذات الالهية وتضمنت تصحيحا للضمائـر وتصحيحا للعقول فى تقدير ما ينبغى لكمـال الله بقسـطاسى الايمـان وقسطاسى النظر والقياسى » .

فالله تعالى فى الاسلام هو المثل الأعلى هو الواحد الأحد الفرد الصمد فليس فى الاسلام تعدد آلهة ، فالجدير بالعبـادة هو الله وهو صـاحب السلطان المطلق .

ولقد اكد القرآن الكريم وحدانية الله تعالى فى نواحى كثيرة واشـار اليها باساليب مختلفة فتارة يقررها تقريرا ويطالب بالايمان بها فيقـول « **قل هو الله احد** » (الاخلاص: ١) « **والهكم اله واحد** » (البقرة : ١٦٣) .

« **الله لا اله الا هو الحى القيوم** » (البقرة : ٢٢٥) .

وتارة يقررها فى معرض الرد على المشركين الذين اتخذوا مع اللـه الها آخر او آلهة أخرى وللكفار الذين عبدوا الأوثان من دون الله فيقول ردا على الأولين « **أإله مع الله** » (النمل : ٦٤) ويتعجب من صنع الآخرين فيقـول « **قال اتعبدون ما تنحتـون** » (الصافات : ٩٥) « **واللـه خلقكم وما تعملون** » .

وتاره يقرر الوحدانية عن طريق تقريره لمخالفته تعالى للحـوادث فيقول « **ليس كمثله شىء** » (الشورى : ١١) .

الى غير ذلك من الأساليب التى ترمى الى تقرير قضية اساسية واحدة وهى أن الله واحد .

ولن يقوم على ثبوت الوحدانية برهان أقوى من برهان التمانع كما يسميه الباحثون فى التوحيد . يقول العقاد : ان وجود الهين سرمدين مستحيل لأن الاثنينية لا تتحقق فى موجودين كلاهما يطابق الآخر ولا يتمايز عنه فى شىء من الأشياء وكلاهما بلا بداية ولا نهاية ولا حدود ولا فروق وكلاهما يريد مايريده الآخر ويعمل مايعمله فهذان وجود واحد ليس بوجودين فاذا كانا اثنين لم يكونا الا متمايزين فلا ينتظم التمايز والتغاير فى نظام واحد . واذا كانا هما كاملين فالمخلوقات ناقصة ولا يكون تدبير المخلوق الناقص على وجه واحد بل على وجوه .

اذن فالفكرة الالهية فى الاسلام فكرة تامة لا يتغلب فيها جانب على جانب ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ولا تجعل لله مثيلا فى الحس ولا فى الضمير بل له المثل الأعلى وليس كمثله شىء ولا شريك له ولم يكن له شريك فى الملك ولقد جاء الكثير من آيات القرآن الكريم ببراهين على اثبات وجود الله فقد كان يخاطب اقواما يشركون واقواما يدينون بالتوراة والانجيل ويختلفون فى مذاهب الربوبيّة والعبادة كان يخاطب العقل ليقنع المخالفين بالحجة فجاء بالبراهين التى استدل بها الحكماء على وجوده وهى براهين الخلق والابداع وبراهين القصد والنظام وبراهين الكمال والاستعلاء والمثل العليا ففى سبيل الحجة العقلية طلب القرآن النظر والتفكير فى هذا الكون اذ لابد لهذا الكون البديع المتسق المترابط من مصدر خالق مدبر له مهيمن عليه ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الا وفيها من الارشاد الى هذا الطريق والدعوة الى التفكير فيه .

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (البقرة : ١٦٤) .

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من اعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (الرعد : ٤) .

« **والسماء بنيناها بايد وانا لموسعون والارض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** » (الذاريات ٤٧ — ٤٩) .

وبجانب اصحاب النظر العقلى هناك ايضا اصحاب الوجدان الفطرى وهو للشعور الدينى الفطرى فى الانسان ويتمثل فى الاحساس الداخلى الذى يحسه الانسان من نفسه حين يتحرر من سلطان الوهم والهوى وينقلب من حكم المادة المظلمة « **ولئن سالتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** » (الزخرف : ٩) .

ولذلك نزل القرآن الكريم وفيه الادلة والبراهين ما يقنع الناس جميعا على اختلاف وتباين افهامهم فالمتدبر لآيات القرآن الكريم يجد فيها ما يعلم الجاهل وينبه الغافل ويرضى فهم العالم . انظر الى قوله تعالى : « **او لم ير الذين كفروا ان السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى افلا يؤمنون** » (الأنبياء : ٣٠) ففى هذه الآية الكريمة يرى العالم الفيلسوف الباحث فى نشأة الكون دقة العلم واحكامه والقارىء من دهماء الناس يرى فيها علما بما لم يكن يعلم قد ادركه باسهل بيان وأبلغه .

وهكذا يرى القارىء لكتاب الله وما فيه من ادلة وبراهين انه قريب من الأمى يفهمه ويعرفه ويعلم منه علم ما لم يكن يعلم ويدرك منه ما يناسب معرفته ويسمو اليه ادراكه ويرى فيه العالم الباحث حقائق صادقة لم يتوصل اليها العلم الا بعد تجارب ومجهودات عقلية .

ومما يستوقف النظر تلك البراهين التى جاء بها القرآن الكريم والتى تعتبر من اقوى البراهين اقناعا واحراها ان تبطل القول بقيام الكون على المادة دون غيرها كما يقول الماديون . ونعنى بهذه البراهين ظهور الحياة فى المادة فالقرآن الكريم يقول : « يخرج الحى من الميت » (يونس : ٣٥) .

« **وانبتنا فيها من كل زوج بهيج** » (ق : ٧) .

فالقرآن الكريم خاطب الأحياء بلغة الحياة والعقلاء بلغة العقل وليست هذه جميع الآيات التى وردت فى القرآن الكريم تبرهن على وجود الله ولكنها امثلة تجمع انواعها .

وعقيدة التوحيد التى جاء بها الوحى المحمدى بعيدة كل البعد عن التشبيه والتجسيم قولا وعملا واعتقادا حتى اصبح شعار المسلم دائما **« قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له »** (الأنعام : ١٦٢ : ١٦٣) .

ثم تردد على مسامعه هذا الوصف الرائع لذات الاله تبارك وتعالى **« ليس كمثله شىء وهو السميع البصير »** فلا خالق ولا مدبر ولا متصرف سواه ولا معبود ولا مسئول سواه .

ومع انه سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء فان الصلة بينه وبين ما خلق ليست منقطعة لهذا الاختلاف الكامل فهو يسمع ويبصر **« وهو السميع البصير »** .

« له ملك السموات والأرض » (الحديد : ٥) .

ثم انه هو الذى يتولى رزق العباد قبضا وبسطا فيما يتولى من مقاليد السموات والأرض **« يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر »** (القصص : ٨٢) فهو الرزاق للعباد ومطعمهم وساقيهم فلمن غيره يتجهون فهو الحاكم بينهم فيما يختلفون .

فالقرآن الكريم اثبت لله تعالى صفات الكمال ونزهه عن صفات النقص . فمن صفات الله التى يجب الاعتقاد بثبوتها هى :

- صفة القدم لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثا والحادث ما يسبق وجوده العدم فيكون وجوده مسبوقا بعدم وكل ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود والا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا فى وجوده الى غيره والواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون ما فرض واجبا وهو تناقض محال .

- ومن صفات الله ان لا يطرأ عليه عدم والا لزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشىء عن نفسه وهو محال بالبداهة.

- ومن صفات الله ايضا ان لا يكون مركبا اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التى هى ذاته وكل جزء من

أجزائه غير ذاته بالضرورة فيكون وجود جملته محتاجا الى وجود غيره والواجب ما كان وجوده لذاته ولانه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه . وقد قلنا انه لذاته من حيث هى ذاته ولانه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هى الواجبة دونه . وكما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة .

— ومن صفات الله الوحدة والحياة والعلم والارادة والقدرة والاختيار والوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا . ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يمليه العقل ولا يهتدى اليه النظر . وذلك مثل صفة الكلام فقد ورد ان الله كلم بعض أنبيائه ومصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لابد ان يكون شأنا من شئونه قديما بقدمه . ومما يثبت بالنقل صفة البصر وصفة السمع فهو السميع البصير وهذا السمع والبصر ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا مما هو معروف لنا .

والعقل البشرى محجوز على ان يرى شيئا واضحا محددا عن الذات الالهية لأن الله لو وقع فى مجال الادراك العقلى لكان محدودا محصورا فى مجال العقل الذى لا يخرج عن كونه حاسة . فالحقيقة الالهية اكبر من ان تدركها العقول او تحيط بها الابصار .

ولقد ادرك المسلمون هذه الحقيقة ادراكا واضحا فتلقوا ما جاء فى القرآن الكريم عن الذات الالهية بالتسليم دون النظر فى كيفيتها او البحث عن كنهها وجعلوا العقل بمعزل عن التطلع الى شىء من ذلك اذ ان هذا التطلع لا يسلمهم الا الى الشرود والضلال .

وهذه مقولات لاثنين من الفلاسفة المسلمين الذين انتهت بهم الفلسفة الى التصوف بعد ان استيأسوا من ان يبلغ بهم العقل شيئا كانوا يريدون ان يبلغوه بفلسفتهم من الكشف عن أسرار هذا الوجود والتعرف على النظام الممسك به ، قال الغزالى « فاعلم ان الساعى الى الله لينال قربه هو القلب دون البدن ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس » .

وقال ابن عربى « ان من يؤمن بانيا ايمانه على البراهين والاستدلالات لا يمكن الوثوق بايمانه لأنه مستمد من الفكر والنظر ولهذا فهو ايمان يتأثر بالاعتراضات ،

وليس معنى ذلك الحط من قدر العقل ولكن للعقل حدود يجب الا يتعداها ، والقرآن الكريم أعلى كثيراً من شأن العقل ووضعه في المكانة اللائقة به بحيث ينتهى اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع واطلق للبشر الارادة في تحصيل لذة عقولهم لافادة التقدم العلمى بما يكتشف العقل من أسرار الكون مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وافكارنا « فالدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد والعقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه وما وراء ذلك نزعات شياطين وشهوات سلاطين » .

ولكن هذا المعنى البسيط لعقيدة التوحيد وان أرضى عقول بعض المسلمين وقلوبهم لم يرضى مسلمين آخرين كانوا على خط من الثقافة الفلسفية أو الصوفية او الاثنين معا . فحاولوا أن يلقوا عليه ضوءا جديدا استحدثوه من ثقافتهم من ناحية ومن تجاربهم الروحية من ناحية أخرى فناقشوا المقصود من التوحيد على وجه التحرير وتكلموا عن انواع مختلفة من التوحيد توحيد العوام وتوحيد الخواص وتوحيد خاصة الخاصة. كما تكلموا عن توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الافعال الالهية بل تكلم بعضهم عن توحيد الحق للحق وتوحيد الحق للخلق وتوحيد الخلق للحق وغير ذلك مما لا يخطر لأهل السلف على بال .

ومن الغريب حقا إن مبالغة بعض مفكرى الاسلام فى تحليل التوحيد والدفاع عنه وتحليقهم عاليا فى سماء التجريد كما فعل المعتزلة والفلاسفة المسلمون ادى بهم أو كاد يؤدى بهم الى احلال صورة مبدأ مجرد هو اشبه بالمطلق عند الفلاسفة واحلاله محل الله الخالق المريدالعالم المعبود كما تصوره كل الأديان السماوية فقد جردوا الله من صفاته الايجابية او قالوا بهذه الصفات وعطلوها وهذا هو الاتجاه الذى اتجهه المعتزلة وبعض فلاسفة المسلمين كابن سينا ومن الصوفية من فهم التوحيد أفراد الله بالوجود الحق الذى ليس الى جانب وجوده ذاتا كان ذلك الوجود الآخر صفة أو فعلا على اختلاف ما بينهم فى التعبير عن هذا المعنى وصياغته فان بعضهم كان أدنى الى الاعتدال واقرب الى مذهب أهل السنة كالحارث المحاسبى وبعضهم اشرف على القول بوحدة الوجود كأبى القاسم الجنيد وبعضهم قال بوحدة وجود سافرة مثل محيى الدين ابن عربى .

وقد اقتضت طبيعة علم التوحيد الخلاف فى مسائل كثيرة ترجع الى الدين وعقائده ، ومن هذه المسائل هى حدوث الأجسام للرد على الدهريين

القائلين بقدم الدهر واثبات ان العالم محدثا هو الله تعالى وانه واحد للرد على الثنوية والمثلثة من المجوس والنصارى وانه لا يشبهه شىء للرد على المشبهة والمجسمة والكلام فى الصفات للرد على المعطلة والكلام فى اعمال العباد وهل يخلقها الله او العباد انفسهم وانه تعالى يريد القبائح او لا يريدها وحكم مرتكب الكبيرة والدلالة على النبوة بصفة عامة ردا على البراهمة وغيرهم من مبطليها والقول فى الامامة ومن يصلح لها .

هذه هى اصول الدين التى تدور عليها بحوث المتكلمين وخلافاتهم وما عداها ففروع منها او مقدمات وتمهيدات لها وبسبب الخلافات فى اكثر هذه المسائل نشأت الفرق الاسلامية المختلفة وهى فرق متعددة يجتمع بعضها احيانا ويفترق بعضها احيانا ومن اجل ذلك يمكن حصر الفرق الاصول فى ست هى :

اهل السنة — المشبهة — المعتزلة — المرجئة — الخوارج — الشيعة .

ولكن ابن حزم يذكر خمس فرق فقط ويسقط من حسابه المشبهة فيقول : ان فرق المقرين بالاسلام خمس : اهل السنة ثم المعتزلة ومنهم القدرية ثم المرجئة ومنهم الجهمية والكرامية ثم الرافضة ومنهم الشيعة ثم الخوارج ومنهم الازارقة والاباضية . ثم افترقوا فرقا كثيرة فأكثر افتراق اهل السنة فى الفروع واما فى الاعتقاد فهذه نبذة يسيرة واما الباقون ففى مقالاتهم ما يخالف اهل السنة الخلاف البعيد والقريب فاقرب فرق المرجئة من قال الايمان التصديق بالقلب واللسان وليست العبادة من الايمان وابعدهم الجهمية القائلون بأن الايمان بالقلب فقط وان اظهر الكفر والتثليث بلسانه . والكرامية القائلون بأن الايمان قول باللسان فقط وان اعتقدوا الكفر بقلوبهم » .

وكلامنا فى هذا الفصل ينصب على المشبهة والمعتزلة والاشاعرة لارتباطهم فى مسائل كثيرة فقد كان لكل من الفرقتين الأوليين فيها رأيا خاصا على النقيض من رأى الاخرى وكان رأى الاشاعرة وسطا بينهما . فلقد جاء فى القرآن الكريم آيات تدل بظاهرها على ان لله وجها ويدين وجهة هى السماء ومكانا هو العرش ونحو ذلك مما يوحى التشبيه والجسمية واخرى تثبت له صفات مختلفة من العلم والقدرة والكلام ونحوها وطائفة ثالثة منها ما يصرح بأن الله لاتدركه الابصار ومنها ما يدل على جواز رؤية الله .

ورجال السلف الصالح تابعوا الصحابة والتابعين في موقفهم فقبلوا ادلة التنزيه لكثرتها ووضوح دلالتها وعلموا استحالة التشبيه وقطعوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها ولم يتعرضوا لمعناها ببحث ولا تأويل ومن هؤلاء الذين وقفوا هذا الموقف مالك بن انس واحمد بن حنبل رضي الله عنهما . فقد سئل الأول عن معنى قوله تعالى «الرحمن على العرش استوى» فقال الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والايمان واجب والسؤال عنه بدعة .

اما المعتزلة والمجسمة والاشاعرة فكان لكل منهم رأى في هذه الصفات فالمجسمة اعتقدوا ان لله يدا وقدما ووجها وجهة ينزل منها حين يريد وعرش يستوي عليه وكلام له صوت وحروف وبذلك نرى ان الاولين اشبهوا في ذاته تعالى والآخرين اشبهوا في صفاته وانهم آلوا جميعا الى التجسيم وعلى النقيض من رأى هؤلاء الغلاة في التمسك بظاهر ما تشابه من الآيات والاحاديث فصاروا الى التشبيه والتجسيم نجد المعتزلة يغالون في فهم تنزيه الله من سمات المخلوقين فينفون صفات المعاني من العلم والقدرة والارادة والحياة حذرا من تعدد القديم كما قضوا بنفي السمع والبصر والكلام لكونها من عوارض الأجسام وهكذا مضوا في هذه الناحية بنفي الصفات حتى سموا بالمعطلة اى الذين عطلوا الذات من صفاتها في مقابل الذين اثبتوها من السلف فسموا بالصفاتية . اما الاشاعرة فلم يسرفوا في التعطيل ولم يغالوا في التشبيه ففي مشكلة الصفات وجد الاشاعرة ان المشبهة والمجسمة الغوا عقولهم بحجة التمسك بالظاهر فاضافوا لله ما لا يرتضيه عاقل من الصفات التي تدل على ان له تعالى وجه ومكان واجزاء ونحو ذلك وان المعتزلة غالوا في الطرف الآخر فنفوا عن الله كل صفة فوقعوا في التعطيل فاضافوا له صفات العلم والقدرة ونحوها مما لا يوهم التجسيم والتشبيه وكذلك في مشكلة كلام الله احادث ام قديم والقرآن مخلوق او غير مخلوق .

رأى الاشاعرة ان الحنابلة والحشوية يذهبون الى ان الاحداث والحروف مع توالها وترتب بعضها على بعض كانت ثابتة في الأزل قائمة بذاته تعالى والى ان المسموع من احداث القراء والمرئي من اسطر الكتاب نفس كلام الله القديم بل زاد بعضهم في الغلو فذهب الى ازلية الجلدة والغلاف كما ذهب آخرون الى ان الحبر الذي يكتب به القرآن فانتظم حروفا وكلمات هو بعينه كلام الله وصار قديما بعد ان كان حادثا . كما راوا ان المعتزلة ذهبوا الى انه حادث مخلوق لانهم زعموا انه من الحروف

وهذا بلا شك حادث ولذلك قالوا الحادث لا يقوم بذاته تعالى واذن فمعنى كون الله متكلما وهذا ما لا يسعهم انكاره انه خلق الكلام فى بعض الأجسام المخصوصة كاللوح المحفوظ وجبريل والنبى والشجرة .

بقى بعد هذه المسألة مسألة رؤية الله وهل هى جائزة او ممتنعة واذا كانت جائزة فكيف ؟

اما الحنابلة المشبهة فيجيزونها فى الدنيا جريا وراء الظاهر فى الآيات والاحاديث بينما احالها المعتزلة لما تستلزمه فى رأيهم من جهة يكون فيها المرئى فى مقابلة الرائى . فجاء الاشاعرة وذهبوا الى جواز الرؤية بالابصار فى الدنيا ووقوعها فى الآخرة من غير ان تستلزم أن يكون المرئى فى مكان وجهة ودون ارتسام صورة المرئى فى العين ونحوها مما لا يوهم بالتشبيه . وبذلك كان الاشاعرة وسطا فى هذه المسألة كما فى سابقيها اذ لم يذهبوا الى ما رآه المعتزلة من نفيها مطلقا ولا الى ما رآه الحنابلة من جوازها بل ووقوعها على الهيئة التى يرى بعضنا بها بعضا ولقد اثبت الاشاعرة الصفات التالية :

« الله عالم بعلم قادر بقدرة حى بحياة مريد بارادة متكلم بكلام سميع يسمع بصير يبصر ، وهذه الصفات كلها قديمة أزلية قائمة بذاته » وكما اثبتوا له السمع والبصر اثبتوا له اليدين والوجه وسائر الاعضاء واعتبروها صفات قائمة به الا انهم منعوا أن تكون كالاعضاء الانسانية فقالوا : أيد لا كالايادى وساق لا كالسياق الى غير ذلك واجازوا عليه تعالى الرؤية .

اما الصوفية المحققون فقد اجمعوا على انه تعالى لا يرى فى الدنيا بالابصار ، قال السيوطى « ولا نعلم واحد من مشايخ هذه الطريقة ولم نر فى كتبهم ولا فى مصنفاتهم ولا فى رسائلهم فى الحكايات الصحيحة عنهم ولا سمعنا ممن ادركنا من زعم أن الله يرى فى الدنيا أو رآه أحد من الخلق .

والتوحيد الذى جاء به الوحى المحمدى هو الايمان بالله وفعله احد واعتقاد عدم الشريك فى الألوهية وخواصها ويرى ابن خلدون أن المعتبر فى التوحيد ليس الايمان او التصديق وحده بل الكمال فى أن يحصل للنفس حال يحصل عنها علم اضطرارى هو توحيد الله فى ذاته وصفاته وأفعاله

وقريب منه ما ذكره التهانوى من أن التوحيد مراتب منها ما كان علميا بالبرهان وهو الحاصل للنظار بادلة النقل والعقل ومنها ما كان عينيا مصدره الوجدان بان يجد صاحبه بالذوق والمشاهدة عين التوحيد أى توحيد الله فى ذاته وصفاته وافعاله .

وفيما يلى تعريفات لبعض علماء وصوفية المسلمين للتوحيد : —

يقول الامام محمد عبده عن التوحيد « اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسمى هذا العلم به تسمية له باهم اجزائه وهو اثبات الوحدة فى ذاته والفعل فى خلق الاكوان وانه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد » .

وسئل الجنيد عن التوحيد « التوحيد افراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال احديته انه الواحد الذى لم يلد ولم يولد ينفى الاضداد والأنداد والاشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل » .

فالله فى الاسلام « **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** » (الشورى : ١١) .

والتوحيد فى الاسلام يختلف عن التوحيد فى تثليث الذى قالت به النصارى كما انه يختلف عن توحيد الفلاسفة الذين انكروا ماهية الرب الزائدة على وجوده وانكروا صفات كماله وانه لا سمع ولا بصر ولا قدرة ولا حياة ولا ارادة ولا كلام ولا وجه ولا يدين ... الخ وليس فيه معنيان متميز احدهما عن الآخر البته وقالوا انه لو كان كذلك لكان مركبا وكان جسما مؤلفا ولم يكن واحدا من كل وجه فجعلوه من جنس الجوهر الفرد الذى لا يحس ولا يرى ولا يتميز منه جانب من جانب بل الجوهر الفرد يمكن وجوده وهذا الواحد الذى جعلوه حقيقة رب العالمين مستحيل وجوده ويشبه توحيد الفلاسفة توحيد الجهمية الذين نفوا صفات رب العالمين ايضا .

والتوحيد فى الاسلام يختلف عما قال به الاتحاديون القائلون بوحدة الوجود فهم يرون أن الوجود واحد فليس عندهم وجودان قديم وحديث وخالق ومخلوق وواجب وممكن بل الوجود عندهم واحد بالعين وهذه الأنواع سماها اهل الباطل توحيدا وسموا التوحيد الذى بعث الله به رسله تركيبا وتجسيما وتشبيها وتسموا تعطيلهم واتحادهم ونفيهم توحيدا وهو غاية النقص .

فالتوحيد الذى جاء به الوحى المحمدى هو التوحيد الذى جاء به بقية الرسل عليهم الصلاة والسلام اثبات الكمال لله واثبات كونه فاعلا بمشيئته وقدرته واختياره وأن له فعلا حقيقيا وأنه وحده الذى يستحق أن يعبد ويخاف ويرجى ويتوكل عليه .

على هذا النحو لفت القرآن الكريم انظار الناس فيما يتعلق بعقيدة الألوهية أما فيما يتعلق بالرسالات عامة ورسالة محمد خاصة فالوحى المحمدى يطلب الايمان بالملائكة طرفا أعلى للاتصال بالله ويطلب الايمان بالرسل طرفا متصلا بالانسان طبيعتهم من طبيعة البشر خصهم الله بنوع من الاصطفاء صاروا به أهلا لتلقى وحى الله من ملائكته والاحتفاظ به كما نتلوه والقيام بتبليغه للناس وكانوا مبلغين من الله معصومين من الخطأ فيما يبلغون « **وما ارسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسالوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** » (الأنبياء : ٧) .

ولقد تعاقبت الرسالات على الأمم وكلها ذات هدف واحد وهو توجيه الانسان الى طريق الكمال وكانت أصول رسالتهم وعقائدها الأولى واحدة لا تختلف ولهذا طلب القرآن الكريم الايمان بجميع الرسل « **قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما اوتى موسى وعيسى وما اوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون** » (البقرة : ١٣٦) .

فالوحى المحمدى صرح تصريحا لا يحتمل الريبة أن دين الله فى جميع الأزمان وعلى السنة جميع الأنبياء واحد قال الله تعالى : « **ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم** » (آل عمران : ١٩) .

ونلاحظ أن القرآن الكريم لا يتناول قضية وجود الله بصورة مباشرة وانما يعالجها فى سياق قضايا أخرى ، فالتدين نزعة فطرية فى الانسان وأساس هذه النزعة هو الايمان بوجود قوة عليا سامية توجه الأمور كلها ؛ وكانت مهمة القرآن هو تهذيب هذه النزعة وتوجيهها الوجهة الحقيقية فتناول القرآن الكريم آثار الخالق فى الكون والدلائل الابداعية فى الآفاق والأنفس ، ليبين للانسان مدى الارتباط بين الخالق والكون من علاقات متعددة بحيث ينتهى الانسان الى التحقق من وجود خالق هذه الطبيعة وهذا الكون وهذه الأنفس ، ومنهج القرآن الكريم هو التوجيه وليس الارغام ، فهو يحث العقل على التأمل العميق والنظر الصحيح فى هذه الامارات الكونية .

ادلة وجود الله فى الفكر الاســـلامى :

هناك اتجاهان لاثبات وجود الله فى الفكر الاسلامى الأول هو اتجـــاه فلاسفة المسلمين امثال الكندى والفارابى وابن سينا :

والاتجاه الثانى هو الاتجاه الكلامى .

ادلة الفلاســـفة المسلمين :

ادلة وجود الله تعالى عند الكندى :

الأدلة التى اصطنعها فيلسوف العرب هما دليل الحدوث ودليل النظام .

اولا — حدوث العالم :

يقرر الكندى أن العالم حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، وحيث ان الأحداث ، أى الايجاد عن عدم ، لا يتصور صدوره الا من الله تعالى ، اذن فمحدث العالم هو الله تعالى ، ووجود الحادث دليل على وجود المحدث .

والعالم عند الكندى ثلاثة اشياء : الجرم ، والزمان والحركة .. وهى متلازمة ، فالجرم مركب ، والتركيب حركة ، والزمان مقدار هذه الحركة ، وقد اثبت الكندى حدوث الزمان بأن فرض جدلا أن الزمان لا نهـــاية له فى جانب الماضى ، فلو حاولنا السير من الحاضر مع الزمان فيما ضيه فسنظل سائرين بدون نهاية . اذن فمن الآن الى ما لا نهاية له فى الماضى لا يمكن ان يقطع وبالعكس ، أى السير من اللانهاية فى الماضى الى الآ لا يمكن ان يقطع وحيث اننا وصلنا الى الآونة الحاضرة اذن فالزمان السابق قد قطع ولا يقطع الا اذا كان له بداية ، اذن فالزمان له بداية ، أى حادث .

كما ان الجرم لو فرض لا نهاية له فى جانب الماضى ، فاذا قطعنا جزءا منه له بداية ونهاية ، فان الباقى اما أن يكون متناهيا أو لا متناهيا فان كان متناهيا ثبت المطلوب وان لم يكن متناهيا فاننا اذا زدنا عليه الجزء المقطوع فانه يصبح مساويا مما كان بعد القطع او اكبر منه ، فان صـــار اكبر وهو لا نهاية له فقد صار مالا نهاية له اكبر مما لا نهاية له وهذا باطل وان صار مساويا فمعنى هذا انه اضيف الى جرم جزء آخر ومع ذلك لم يزد وهـــذا يستلزم مساواة الجزء للكل لأن الجرم قبل القطع كان كلا وبعد القطع صار جزءين ، ومساواة الجزء للكل مستحيل ، اذن لا يمكن أن يكون الجرم لا نهاية له ، أى انه حادث .

وحيث انه ثبت ان الجرم حادث والزمان حادث فالحركة حادثة لتلازم الثـــلاثة .

ثانيا ــ دليـــل النظـــام :

جميع الكائنات منظمة فيما بينها بحيث تحقق تبادل الانتفـــاع بعضها ببعض ، والتنظيم لا يتم الا بمنظم عاقل ، والكائنات غير عاقلة اذن ، فالمنظم له علة عاقلة خارجة عنها ، هذا العلة العاقلة الخارقة عن الكون الموجهة له نحو تحقيق غاياته والمنظمة له تنظيما دقيقا هى الله .

كما أن الموجودات الكونية تتجه بفعلها نحو تحقيق غاية معينة واتجاهها هذا ليس بالصدفة ، بل أمر مقصود . وهذا أمر لا يتم الا ممن يملك العقـــل وحيث ان الموجودات الكونية خالية منه اذن فهى موجهة من قبل موجود عاقل .

يقول الكندى « فى نظم هذا العالم وترتيبه وفعل بعضـــه فى بعض وانقياد بعض لبعض وتسخير بعضه لبعض واتقان هيئته على الوجه الأصلح فى كون كل كائن وفساد كل فاسد وثبات كل ثابت وزوال كل زائل لأعظم دلالة على اتقن تدبير ومع كل تدبير مدبر وعلى أحكم حكمة ومع كل حكمة حكيم لأن هذه جميعا من المضاف » .

اما الفارابى فقد استخدم دليل الواجب والممكن ..

فيفرض ان كل وجود اما واجب او ممكن ، فان كان واجبا فقد ثبت وجود الواجب ، وهو المطلوب ، وان كان ممكنا فاما أن يكون غير حادث حدوثا زمنيا أو يكون حادثا فان كان غير حادث حدوثا زمانيا بأن كان ثابت الوجـــود فهذا الثبات يرجـــع اما الى الـــذات او الى علة غير الـــذات ، فان كان الثبـــات راجـــع الى الـــذات فهو واجب بذاتـــه وهذا باطـــل لأن الفـــرض انه ممكـــن اذن فلـــم يبـــق الا ان يرجـــــع الثبـــات الى علة اخـــرى ، هـــذه العلة ان كانت ممكنـــة فلهـــا علـــة وعلتهـــا ان كانت ممكنـــة فلها علة وهكـــذا فاما أن يدور الأمر او يتسلســـل والدور والتسلسل باطلان اذن لم يبق الا أن تكون العلة مخالفة للممكن ولا شىء الا الواجب ، هذا على فرض ان الممكن غير حادث اما ان كان حادثا فهو يحتاج الى علة للثبات وعلة للحدوث ويمكن ان تكون علة الحـــدوث هى نفسها علة الثبات ان بقيت مع الممكن الحادث هذه العلة لا يمكن ان تكون ذات الممكن والا كان واجبا لا ممكنا والحال انه ممكن اذن فلم يبق الا ان تكون العلة امرا آخر وهذا الأمر الآخر ان كان ممكنا فله علة وعلته ان كانت ممكنة فلها علة وهكذا فاما أن يدور الأمر او يتسلســـل والتسلسل باطل اذن فلم يبق الا أن تكون العلة مخالفة للممكن ولا شىء الا الواجب .

وتابعه في القول بذلك ابن سينا وتوسع فيه .

ادلة المتكلمـــون :

قرر المتكلمون حدوث العالم اولا واحتيـــاجه الى من يحـــدثه وهذا المحدث اذا كان حادثا احتاج الى محدث وكل محدث محتاج الى محدث وهكذا فاما ان يدور الأمر أو يتسلسل وكل من الدور والتسلسل باطل . فبطل ما ادى اليهما وهو احتياج العالم الى محدث حادث وثبت احتياجـــه الى محدث قديم وهو الله تعالى .

حدوث العالم :

يقسم عامة المتكلمون العالم الى جواهر وهى ما قامت بنفسها مثل الأجسام ، واعراض وهى ما قامت بغيرها مثل الحركة والسكون ، وحيث أن الأعراض حادثة اذ شوهد تغيرها من عدم الى وجود وعكسه والأجسام تلازمها الأعراض اذ لا يخلو جسم من حركة أو لا حركة وملازم الحـــادث حادث اذن الجواهر حادثة وبالتالى فالعالم حادث .

بطلان الدور والتسلسل :

الدور هو توقف الشىء على ما توقف عليه ، فالدور عند المتكلمون باطل لمـــا فيه من كون الشىء متقدما على نفسه متأخرا موجودا معدوما من آن واحد .

اما التسلسل وهو ترتب امور غير متناهية في جانب الماضى فانهـــم يحيلونه فى كل الموجودات ، فبالنظر الى جملة الحـــوادث المفروض فيها التسلسل وابطال أن يكون وجودها من نفســـها أو من جزء من اجزائهـــا لاستلزامه كون الشىء علة لنفسه فيكون متقدما عنها متاخـــرا وموجودا ومعدوما كل ذلك فى وقت واحد واذا بطل ذلك تعين ان يكـــون واهب الوجود هو امر خارج عن دائرة الحوادث وهو القديم فتنتطع به سلسلة الحوادث ويصبح له بداية وهذا دليل يبطله التسلسل ويبطلان التسلســـل والدور ينتج أن العالم حادث وكل حادث لابد أن ينتهى الى محدث قديـــم وهو الله تعالى .

الباب الثانى

النبــوات والســمعيات

تمهيــد :

نظرية المعرفة قديمة قدم التفلسف وان لم يتقرر لها ابحاث مستقلة الا منذ عهد الفيلسوف الانجليزى « جون لوك » اذ انه أول من حاول وضع هذا البحث فى صورة العلم المستقل ويعد « امانويل كانت » بعد لوك أعظم من كتب فى نظرية المعرفة وارسى قواعدها على اسس علميــة سليمة » .

« ويعد « امانويل كانت » امام المذهب النقدى فى المعرفة وقد رأى أن كل من المذهب العقلى والمذهب التجريبى بجانب الصواب الاول لأنه يتشبث بالأفكار النظرية والآخر لانه يبنى على التجربة الحســية دون غيرها » .

« ومن المفكرين من يعرفها بأنها العلم بالشىء ليعنى ادراكه فكأنما يجعلها بحثا فى تحصيل العلم ، أى العمليات التى يبذلها العقل داعيا فى كسب معلوماته ، وذلك كعمليات الاحساس والتذكر والانتباه والتفكير فتصبح فرعا من فروع علم النفس أو تصير علما جزئيا مع انها تتخذها العلوم الأخرى أساسا لها لانها تبحث فى صدق العلم الانسانى وتضــع الحدود لما فى مقدورنا أن نعرفه . لذلك لا يمكن أن نعتبر نظرية المعــرفة بحثا فى كيفية تحصيل العلم وان كان هذا البحث داخلا فيها فهو فرع منها » . لذلك عرفها بعض المفكرين « بانها العلم الذى يبحث فى مادة العلم الانسانى ومبادئه الصورية « وبعضهم اعترف أن المنطق جزء منهــا ولكن لا تقتصر عليه أيضا فهما علمان متكاملان « فالبعض خلط بينهــا وبين المنطــق والبعض اعترف بأن المنطــق جزء منها وذلك لأن نظرية المعرفة تبحث فى مادة التفكير العامة ويبحث المنطق فى القوانين التى تنظم هذه المادة تنظيما خاصا حتى يحصل العقل على المعرفة اليقينية « .

فنظرية المعرفة وان اشتملت على كل هذه النظريات الا انها أوسع واشمل من كل هذه النظريات « لانهــا تعرض للبحث فى امكــان المعرفة فتواجــه مشكلة الشــك فى الحقيقة أو اليقين بها والتفــرقة المعرفــة الأولية التى تسبق التجربة والمعرفة التى تجىء اكتسابا وتدرس الشروط التى تجعل الأحكام ممكنة كما تبحث نظرية المعرفة فى الادوات التى تمكن

من العلم بالأشياء وتحدد مسالك المعرفة ومنابعها وتهتم بمعرفة اتصال قوى الادراك بالشيء المدرك وعلاقة الأشياء المدركة بالقوى التى تدركها » .

ويمكن أن نجعل البحث فى نظرية المعرفة فى ثلاثة أسئلة :

« ما المعرفة ؟ وهو سؤال عن نفس المعرفة وحقيقتها . وبما تحصل المعرفة ؟ وهو سؤال عن أصل المعرفة ومنبعها وهل يمكن تحصيل المعرفة ؟ وهو سؤال عن صحة المعرفة وحدودها » .

وبمحاولة الاجابة على هذه الأسئلة تكونت المذاهب فى نظرية المعرفة : فبالاجابة على السؤال الأول ظهر مذهب الواقع ويعارضه مذهب المثال وبالاجابة عن السؤال الثانى تكون المذهب الحسى التجريبى ويعارضه المذهب العقلى وبالبحث فى أى هذين المذهبين على الحق وأيهما على الباطل ظهر السؤال الثالث وهو هل تمكن المعرفة ؟ واذا أمكنت فما حدودها . والعقليون والتجريبيون لم يحاولوا الاجابة على هذا السؤال بل آمنوا مبدئيا بأن لنا قدرة على معرفة الأشياء اما بواسطة الحس واما بواسطة التفكير ولذلك يطلق على هذين المذهبين مذهب اليقين نظرا لتيقنهما بامكان المعرفة ويعارض مذهب اليقين مذهبان آخران يتعلقان بامكان المعرفة وحدودها مذهب الشك والآخرمذهب النقد الذى توسط بين الحسيين والعقليين » .

هذه هى مشكلة أصل العلم الانسانى ومصدره وفيها انقسم الفلاسفة الى هذه المذاهب فما هى المذاهب السابق ذكرها .

المذهب الواقعى :

وأصحاب هذا المذهب « هم الذين يعترفون بوجود عالم خارجى مستقل عن أى عقل يدركه وعن جميع أفكار أو أحوال ذلك العقل وليست الأمور المدركة فى التجربة سوى رموز فى العقل ولكنها رموز تدل على حقائق خارجية واقعة وينقسم الواقعيون الى طائفتين بحسب تعريفهم لتلك الحقائق الخارجية فمنهم أصحاب المذهب الواقعى الساذج الذى يشاركهم فيه غالبية المثقفين من بنى الانسان وهؤلاء يقولون أن الأشياء أو أعيان الموجودات الخارجية هى فى حقيقتها كما تدركها بالحس ومنهم

اصحاب المذهب الواقعى النقدى الذين يقولون ان حقائق الأشياء هى التى ندركها بالحس ثم نمحصها فى ضوء ما نعلم من قوانين العلوم الطبيعية ولذلك كان من أهم مبادئهم قولهم أن الكيفيات التى ندركها بواسطة الحواس أمور ذهنية بحتة « أى أن أصحاب هذا المذهب يرون أن المعرفة هى ادراك الشىء الخارجى كما هو فى الواقع .

المذهب المثالى :

وأصحاب هذا المذهب « أنكروا أن تكون المعرفة ادراكا مطابقا للموجودات المدركة وأن يكون لهذه الأعيان وجود مستقل عن العقل الذى يدركها اذ ليس بين عملية الادراك والأشياء المدركة تشابه أو تطابق يبرر اعتبار المعرفة صورة دقيقة للأشياء المدركة وان وجود الموجودات يتوقف فى نظر المثاليين على القوى التى تدركها وهى نفسها ليست الا صورا عقلية « أى أنه المذهب » القائل بأن كل ما يمكن العلم به من الأشياء أو كل ما هو موضوع للتجربة فهو فى أصل طبيعته أو فى جوهره شىء عقلى فاذا عرف ذلك الشىء العقلى بأنه مجموعة أعمال ذهنية بحتة فى عقل فرد سمى بالمذهب المثالى الذهنى أو المذهب الذاتى البحت . أما اذا وقف عند حد القول بأن التجربة تتألف دائما من أفكار وأن كل ما تتكون منه مادة المعرفة فيصبغ بصبغة عقلية أو مصورة بصورة عقلية من غير أن يذكر شيئا عن ذات عاقلة أو ذات لها هذه الأفكار فانه يسمى بالمذهب المثالى الخارجى وهناك ما يسميه كنت بالمذهب المثالى التجريدى وهو مختلف تمام الاختلاف عن هذين المذهبين فان كنت يميز بين صور العلم ومادته . أما الصورة فهى معانى يدركها العقل بمحض نظرته كالزمان والمكان اللذين هما صورة الادراك الحسى كالتعدد والعلية والامكان وغيرها من صور الفكر . وأما مادة العلم فأمور موجودة بالفعل وهذه يفسرها كنت تفسيرا واقعيا » .

مذهب التجريبيين :

وأصحاب هذا المذهب « يرجعون كل علم الى التجربة ويصفون العقل قبل التجربة بأنه صفحة بيضاء وقد يسمى هذا المذهب بمذهب الحسيين اذا اعتبر الادراك الخارجى — أى الادراك عن طريق الحواس — أصل كل علم » . « أما الذى صاغ الفلسفة التجريبية فى انجلترا ووضعها فى صورتها الدقيقة فهو لوك » .

مذهب العقليين :

اصحاب هذا المذهب « يقولون ان القوة العـاقلة فى الانسـان — وهى فى نظرهم قوة نظرية — وهى الأصل الذى يصدر عنه كل علم حقيقى او انها على الأخص مصدر اهم صفتين يتصف بهما العلم الحقيقى وهما صفتا الضروره والصدق المطلق فاصحاب هذا المذهب يرون أن المعرفة تحصل بالفكر وحده فالحواس خداعة كاذبة والتفهم والتعقل هو المنبـع الوحيد للمعرفة .

« يقول ديكارت ان حواسنا تخدعنا احيانا وما يخدعنا مرة لا يؤمن جانبه فانه قد يخدعنا مرارا فينبغى أن نستبعد شهادة الحواس كلها » .

« اما اشهر الفلاسفة العقليين فديكـارت واسبنوزا وليبنتز وولف الذين يجمعون على أن اكبر قسط من العلم الانسانى صادر عن العقل ذاته » .

مذهب اليقين :

وهذا المذهب يطلق بوجه خاص على المدارس الفلسفية التى لا ترى ضرورة لوضع حد فاصل بين العلم المكتسب بالتجربة وبين تعريفات المعانى العقلية المجردة اى أن مذهب بهذا المعنى مذهب لا يعرف للعلم الانسانى مدى ولا يضع له حدا فهو او هى المذاهب التى وضعت فى مقدرة الانسان على العلم فى الوقت الذى هو فيه اكثر هذه المذاهب ادعاء من أجل ذلك اقترن اسـم مذهب اليقين عـادة بالمذهب العقلى لأن العقل اذا اعتبر وحده مصدر كل علم حقيقى لم يكن لذلك العلم حدود خارجية او موضوعية وهذا هو السبب فى ظهور اليقينيين بكثرة فى العقليين .

مذهب الشكاك :

واصحاب هذا المذهب « لا يعرفون للجهل الانسانى حدا ولا نهـاية ايضا لأن اصحاب الشك المطلق لم يقولوا أن العلم ليس مقدورا للانسان ولا يذهبون حتى الى القـدر الذى ذهب اليـه سـقراط من انه كان على الأقل يعلم انه لا يعلم شيئا بل يصرحون بان ادعاء اى للعلم لا مبرر له » .

مذهب النقديين :

وهم الذين « يحاولون التوفيق بين الدعاوى المتعارضة التى يدعيهـا اصحاب المذهبين — المذهب العقلى والمذهب التجريبى — ويفسر النقديون

العلم بأنه نتيجة اجتماع عاملين أحدهما صورى يرجع الى طبيعة العقل ذاته والآخر مادى يتكون من الاحساسات الداخلة فى الادراكات الحسية فاذا لم يوجد أحد هذين العاملين استحال وجود علم حقيقى أو من المستحيل قطعا فى نظرهم أن نصل عن طريق العقل الصرف الى حقائق لها أية قيمة علمية على نحو ما يدعى العقليون » ولقد كان كنت هو المؤسس الأول للفلسفة النقدية .

مذهب بعض فلاسفة الاسلام :

المعرفة عند الكندى (١٩٨ — ٢٥٨ هـ) :

وسيلة المعرفة عند الكندى هى الحواس والعقل والحواس نوعين ظاهرة وباطنة ، فالحواس الظاهرة هى آلات للنفس تدرك بها صور المحسوسات محمولة فى مادتها والخواص الباطنة مثل المخيلة التى تقدر على تركيب الصور التى ليست فى عالم الحس . وهناك القوة الحافظة والقوة الوهمية « بيد أن من يقتصر على الحس فيما يرى الكندى يبتعد عن المعرفة الحقيقية للمهايا » .

ويقسم الكندى العقل الى أربعة أقسام :

١ — عقل هو بالفعل دائما وهو علة وأول لجميع المعقولات وهو مخالف فى الحقيقة للانسان بل وللعقل الانسانى وهو علة له .

٢ — عقل بالقوة وهو استعداد النفس الانسانية لأن تعقل الاشياء وتدركها أو هو الشىء الذى فى النفس فى حالة كونها غير عاقلة بالفعل ويشبه العقل بالقوة حالة العقل عند الطفل .

٣ — عقل مستفاد وهو حصول العقل فى النفس وخروجه من القوة الى الفعل بادراك الأشياء وهذا العقل يكون ثابتا للنفس كالملكة تستعمله متى شاءت وتظهره متى أرادت وذلك مثل الكتابة فى الكاتب فهى له معدة ممكنة قد اقتناها واتصف بها وثبتت فى نفسه فهو يستخرجها ويستعملها متى شاء .

٤ — العقل الظاهر وهو العقل الذى يؤثر به الانسان فيما عداه فيكون موجودا بارزا حين الفعل .

والعقول الثلاثة الأخيرة هي اقسام اعتبارية وأحوال للعقل الانساني الذي يسميه الكندي العقل الثاني وهي معلومة لغيرها أما العقل الأول فهو العلة الأولى والمبدأ الأول وهو بالفعل أبداً وحقيقته مخالفة لحقيقة العقل الانسـاني .

« وموضوع المعرفة اليقينية عنده هي وجود الله أو الوجود المطلـق أو الواجب ويرى العقل وحده الحواس وسيلة معرفته وادراكه » .

وليس معنى ذلك أن الكندي لا يقر الحواس كوسيلة أخرى للمعـرفة ولا يجعل العالم الحس موضوعا لمعرفة ما أى كان نوعهـا بل هو يقتصر النوع اليقيني في المعرفة على ما كان الكامل في الوجود موضوعا له وعلى ما كان العقل وسيلة لتحصيله دون أن يلغى اعتبـار ما عداه وهـو في التفريق بين نوعى المعرفة مقتديا بافلاطون وارسطو . فافلاطون جعـل موضوع المعرفة اليقينية ماعنون له « بالوجود المطلق » وهو النوع الكامل من نوعى الوجود وهو وجود المثال او رب النوع فالمثل كما انها أصول لوجود تصور على غرارها الأشياء التى تقع في هذا العالم هي مبادىء المعرفة اليقينية ايضا التى تدركها النفس بما لها من خصائص واسـلوب بالرغم من انه يرى وجود المفهوم أو العام أو الصورة وهو النوع الكـامل من نوعى الوجود عنده غير مستقل عن وجود افراده في الخارج فانه يجعله في المرتبة الأولى حيث تعلق المعرفة به من حيث انه موضوعها الحقيقي .

ولا يقتصر الكندي على تقرير هذين النـوعين من المعـرفة بل يرى بجانبها نوع ثالث : هو المعرفة الاشراقية . وهـذا النـوع من المعرفة خاص بمن يصطفيهم الله للنبوة والرسالة وهؤلاء اللذين اصطفاهم اللـه لعلمهم خصائص تبعده عن العلم الكسبي الذى يحصل بالنظر والاستدلال ومن أهم هذه الخصائص أن معرفتهم تحصل « بلا طلب ولا تكلف ولا بحث ولا بحيلة بشرية بالرياضات ولا بزمان بل مع ارادته جل وتعالى » . فالحق جل وعلا يجعلهم مستعدين لهذا النوع من المعرفة وذلك بتطهير أنفسـهم وانارتها للحق بتاييده وتسديده والهامه .

اذن فالمعرفة عند الكندي ثلاث انواع :
١ـ حسية وهي ادنى انواع المعارف لأن موضوعها متغير .
٢ـ وعقلية وهي اشرف منها لأن موضوعهـا الأمـور الكليـة من الانواع والأجناس وهي ثابتة .

— والاشراقية وهى التى يخص الله بها من يشاء من عباده وهم الرسل وهى اسمى أنواع المعارف جميعا .

المعرفة عند الفارابى : (٢٦٠ هـ — ٣٣٩ هـ) :

العقل البشرى عند الفارابى « سالكا سبيل رقيه وتطوره يمر بمراحل متدرجة بعضها فوق بعض فهو أول أمره عقل بالقوة فاذا ما ادرك قدرا كبيرا من المعلومات العامة والحقائق الكلية اصبح عقلا بالفعل وقد يتسع نظره ويحيط باغلب الكليات فيرقى الى اسمى درجة يصل اليها الانسان وهى درجة العقل المستفاد او درجة الفيض والالهام » .

ويرى الفارابى أن المعرفة الانسانية لها وسائل ثلاث : —

١ — قد تكون بالقوة الناطقة .
٢ — قد تكون بالقوة المتخيلة .
٣ — قد تكون بالقوة الحاسة .

ذلك انه اذا كان النزوع والرغبة الى علم شىء وادراكه من شانه أن يدرك بالقوة الناطقة فان العقل الذى ينال به الشخص ما يتشوق اليه ويرغب فيه من ذلك يكون بقوة أخرى فى الناطقة وهى القوة الفكرية وهى التى يكون بها الفكر والروية والتأمل والاستنباط . واذا كان النزوع الى علم شىء يدرك بالاحساس كان الشىء الذى ينال به ذلك فعلا مركبا من امرين فعل بدنى وفعل نفسى ذلك أن يكون مثلا فى المرئيات برفع الأجفان وبأن تحاذى انصارنا نحو الشىء الذى نتشوق اليه وهذه الأفعال بدنية . والاحساس بنفسه فعل نفسانى واذا كان التشوق (أى الرغبة والنزوع) الى تخيل أى شىء فمعرفة ذلك من عدة طرق : منها ما يرد على القوة المتخيلة بواسطة الاحساس بشىء ما ذلك الشىء مأمول فيه أو مخوف منه . وأما أن تخترع القوة المتخيلة شيئا مرجوا لها مرغوبا فيه أو تتمناه مع أنه قد لا يكون له وجود خارجى .

هذه هى طرق المعرفة . اما كيفيتها فانه لا تكاد الحواس تقع على المحسات حتى تنتزع منها صور صالحة للتعقل ثم تنتقل هذه الصور من درجة الحس الشخصى الى درجة الحس المشترك ثم الى درجة الخيال الذى يحفظ هذه الصور التى لا تزال عالقة بالمادة حتى تأتى القوة

الناطقة فتخلص هذه الصور من المادة وترتيب هذه الصور الجزئية الحاصلة فى العقل وتقارنها بعضها ببعض كى تكون من ذلك المعانى الذهنية والأمور الكلية . على أن المعرفة الحقة هى ما كانت عن طريق النفس الناطقة (العقل) وهى المعرفة المتعلقة بالأمور الكلية والماهيا العامة . وهذه المعرفة لا يحصلها الانسان بل انها تتجلى له فى صورة هبة من العالم الأعلى من العقل الفعال ففى ضوء هذا العقل الفعال يستطيع عقلنا ان يدرك الصور الكلية للأجسام وبذلك يصير الاحساس معرفة عقلية ذلك أن انتقال العقل من القوة الى الفعل لا يكون من الانسان نفسه بل من العقل الفعال الذى هو أعلى رتبة من العقل الانسانى .

المعرفة عند ابن سينا : (٣٧٠ هـ — ٤٢٨ هـ) :

تتبع ابن سينا الفارابى بالقول بالمعرفة الاشراقية الا انه فصل فى كيفية ادراك الحواس للمحسوسات بما يوافق آراء الفلاسفة المحدثين فالاحساس عنده وظيفة نفسية ادراكية تحدث نتيجة انفعال يقع على الحس من الشىء الخارجى . وهذا الانفعال مصحوب بلذة أو بألم تبعا للمؤثر ان كان موافقا أو مخالفا ووضح المعرفة الاشراقية ابن سينا فقال : « ان القوة العقلية اذا اطلعت على الجزئيات التى فى الخيال واشرق عليها نور العقل الفعال فينا استحالت مجردة عن المادة وعلائقها وانطبعت فى النفس الناطقة لا على انها تنتقل من التخيل الى العقل بل على معنى أن مطالعتها تعد النفس لأن يفيض عليها المجرد من العقل الفعال » .

وكان ابن سينا يقول بمعرفة تأتى عن طريق الالهام غير المعرفة الآتية عن طريق العقل والحواس .

وكان عنده موضوع المعرفة نفسه وليست وسيلتها من عقل أو حس هو السبب فى تمييز الناس بعضهم عن بعض وفى اختلاف قيمهم ومنازلهم واختلاف حظهم فى الكمال والسعادة فمنزلة العارف بالعالم المجرد ارفع وحظه فى الكمال والسعادة اكثر من منزلة العارف بالعالم الحسى ومن حظه والذى يعرف الله كما يرى ابن سينا على الوجه الذى حددته فكرة واجب الوجود ويقف على نظام الكل كما تشرحه نظرية الصدور وتدرج الموجودات بعضها عن بعض من المجرد الى المادى المحسوس اعلى قيمة واوفى حظا واحسن بهجة من ذلك الذى لم يدرك الله ولم يقف على الكل على هذا الوجه الفلسفى الخاص .

الفصل الأول

النبـــوات

يعد هذا الغرض المجز عن المعرفة واختلاف المذاهب فيها :

هناك معارف جمهور الناس لا تساعدهم عقولهم لمعرفتها كمعرفة بعض الغيبيات وكمعرفة الله والتحقق من الحياة الأخرى ومعرفة الملائكة والجن . كما لا تستطيع عقولهم أن تقرر لكل نوع من الأعمال جزاء فى الدنيا والآخرة فعقوبة السارق وثواب الصبر والصلاة والزكاة كل هذا مما يعجز العقل العام أن يصل اليه فلهذه الأشياء وسواها جاء الرسول والأنبياء ليرشدوا العقل الى الخير والشر ولوصف النعيم الذى ينتظر المطيع والعقاب الذى سينزل بالعاصى جاءوا ليرشدوا العقل الى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته وليبينوا أن ذات الله موضع للبحث ولا يصل اليها عرفان جاءوا ليعرفوا الناس ابناء الغيب ما أذن الله لمبادهفى العلم به . جاءوا ليبلغوا الناس أوامر الله ونهيه وليشرحوا لهم ما فرضه الله عليهم من عبادة « **جاءوا لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل** » (النساء : ١٦٥) جاءوا لئلا يقول الناس « **ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نزل ونخزى** » (طه : ١٣٤) جاءوا على العموم لتحقيق خير الناس فى دنياهم وآخرتهم على أن يحملوا للناس ما تحتمله عقولهم من ارشادات .

النبوة ومعجزة الأنبياء :

النبوة أساس الدين لأن كل ما جاء فى الدين من عبادات ومعاملات وارشادات وأخلاق انما هى عن طريق النبوة فالنبوة روح المجتمع الانسانى وعصب المجتمعات البشرية والركن المتين الذى يقوم عليه التعامل بين أفراد المجتمع تعاملا يجلب لهم السعادة ويشيع فيهم روح الاخوة فى الدين والانسانية والأنبياء والرسل جاءوا لهداية الناس وهم مصدر من مصادر المعرفة لا غنى للانسان عنها .

يقول احد الصوفية :

« الهى كيف لا أرى منعما عليه غيرى وقد انعمت على الأنبياء وقد أنعمت على العلماء وقد أنعمت على الملوك فاذا قائل يقول لى : لولا الأنبياء ما اهتديت ولولا العلماء لما اقتديت ولولا الملوك لما آمنت فالكل نعمة منك عليك » .

ويعرف الغزالى النبوة بانها « مصدر من مصادر المعرفة لا غنى للانسان عنها يعرف بواسطتها ما عجز عقله عن الوصول اليه مما فيه صلاح للبشر وسعادتهم وهدايتهم وهى مرحلة من مراحل المعرفة تلى معرفة العقل اذ هى طور وراء العقل اذ وراء العقل طور آخر تتضح فيه عين اخرى يبصر بها الغيب وما سيكون فى المستقبل وامور اخرى العقل معزولا عنها كعزل قوة التمييز عن ادراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز » .

والحكيم الترمذى يصف النبوة فى كتابه ختم الأولياء ص ٣٤٢ بانها « العلم بالله عز وجل على كشف الغطاء وعلى اطلاع اسرار الغيب (وهى) بصر نافذ فى الأشياء المستورة بنور الله تعالى التام » .

والشرع يعرف النبى انه انسان حر من بنى آدم أوحى الله اليه بشرع سواء امره بتبليغه أو لم يامره . وهو من لم ينزل عليه كتابا ولم يأمره الله بحكم جديد بل امره أن يدعو الناس الى دين من قبله من الرسل . اما الرسول فهو انسان حر من بنى آدم أوحى الله اليه بشرع وامره بتبليغه وقيل أن الرسول من نزل عليه جبريل عليه السلام وامره بتبليغ رسالة الله تعالى الى الناس .

واساس النبوة هو الوحى والالهام لأن كل ما اخبر به الأنبياء انما جاءهم عن طريق الوحى والالهام « **والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى** » .

ونظرية الوحى وطرقه فى الاسلام سهلة واضحة فهناك جبريل عليه السلام هو الواسطة بين الله وانبيائه وعنه تلقى محمد صلى الله عليه وسلم كل الأوامر الدينية اللهم الا فى ليلة المعراج فقد اتصل بربه مباشرة واستمع ما فرض عليه وعلى امته . وللوحى انواع شتى ومراتب مختلفة : —

— الرؤيا الصادقة فى النوم فكان الرسول لا يرى رؤيا الا وجاءت مثل فلق الصبح .

— ما يلقيه الملك فى روع ونفس النبى دون ان يراه كما قال محمد صلى الله عليه وسلم ان الروح القدس نفث فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها .

— أن يأتى الملك للنبى مثل صلصلة الجرس .

— أن يرى الملك فى صورته التى خلق عليها له ستمائة جناح من اللؤلؤ والياقوت ليوحى اليه ما شاء الله أن يوحيه .

— ما أوحى به الله الى محمد صلى الله عليه وسلم فوق السموات ليلة المعراج .

— تكليم الله له من وراء حجاب بلا واسطة ملك كما كلم موسى بن عمران . وهذه المرتبة ثابتة لموسى عليه السلام بنص القرآن وهى ثابتة للرسول

صلى الله عليه وسلم بحديث الاسراء .

« ورجال الاسلام فى الصدر الأول لم يترددوا مطلقا فى التسليم بهذه الوسائل الخاصة بالوحى والالهام ولم يحاول واحد منهم أن يسأل عن النبوة فى سرها وأساسها ولا عن المعجزات فى عللها وأسبابها وآمنوا ايمانا صادقا بكل ما جاء من عند الله دون بحث أو تعليل » .

ومن ينكر الوحى ولا يسلم بوقوعه يهدم الدين من أساسه ويطعنه فى دعامته الأولى وعماده المتين .

أما امكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ما غاب عن مصالح البشر عن دعامته لمن يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب ادراكه الا على من لا يريد أن يدرك ويجب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم . فأى استحالة فى الوحى بأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر ومما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا وأن الادنى منها لا يدرك ما عليه الاعلى الا على وجه من الاجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت فى النظر التى لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه ولا شبهة فى أن النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك الا ما لا يحصره العدد . وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى اليه

ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ثم يألفون ما صار اليه كانه من المعروف الذى لا ينازع والظاهر الذى لا يجاحد فاذا ذكره منكر ثاروا عليه ثورتهم فى بادىء الأمر على من دعاهم اليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهرا فى كل أمة .

اذن فمن النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به لأن تتصل بالأفق الاعلى وتنتهى من الانسانية الى الذروة العليا وتشهد من امر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها الى عقله بمصى الدليل والبرهان وتتلقى من العلى الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه احدنا من اساتذة التعليم ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على ابلاغه اليهم وان يكون ذلك سنة الله فى كل امة وفى كل زمان على حسب الحاجة .

اما وجود بعض الأرواح العالية وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من انفسنا وارشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو الطف من المادة وان غيب عنا فأى مانع من ان يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرفا لشىء من العلم الالهى وان يكون لنفوس الأنبياء اشراف عليه فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته .

اما تمثل الصوت واشباح لتلك الأرواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند اعداء الانبياء ما لا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة فقد سلموا ان بعض معقولاتهم تتمثل فى خيالهم ويصل الى درجة المحسوس فيصدق المريض فى قوله انه يرى ويسمع بل يجالد ويصارع ولا شىء من ذلك فى الحقيقة بواقع فان جاز التمثل فى الصور المعقولة ولا منشأ لها فى النفس وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ فلما لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية وان يكون ذلك لها عند ما تنزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى اهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم .

اذن فقد اتفق العقلاء على ان الوحى ممكنا عقلا ولا استحالة فيه لان العقول السليمة لا تجد مانعا من ان الله يصطفى من البشر افرادا يطهر نفوسهم ويقوى ارواحهم ويعدهم اعدادا فطريا لتلقى وحى الله

تعالى وقد اجمعت الشرائع على وقوع الوحي من الله تعالى وجعله واسطة بينه وبين عباده في تبليغ أحكامه اليهم ويستدل عليه بأمور ثلاثة :

— الخبر المتواتر بوقوع الوحي لنبي من الأنبياء فهو دليل من لم ير ذلك النبي ومعجزاته .

— الخبر الصادق بوقوع الوحي لنبي فهو دليل ايضا بالنسبة لمن لم ير ذلك النبي المخبر عنه بوقوع الوحي ويفيد من سمعه اليقين بالمخبر عنه .

— المعجزة التي تقع على يد مدعي النبوة وهي الأمر الخارق للعادة وهي دليل بالنسبة لمن كان حاضرا في زمن النبوة لأن النبي يستند اليها في دعواه انه مبعوث من قبل الله فاصدار الله لها تاييدا من الله تعالى وتصديقا للنبي في دعواه .

المعجزة :

المعجزة أمر خارق للعادة يعجز البشر عن الاتيان بمثله يجيء على يد رسول من رسل الله ويقدم الرسول المعجزة دليلا على صدقه .

وتتناسب المعجزة مع الدعوة ففي اديان المرحلة الأولى التي تدعو لتوحيد الله وترك عبادة الأوثان لا تحتاج الى معجزة فالادلة التي يقدمها انبياء هذه المرحلة عبارة عن حث الناس على استعمال عقولهم وتذكيرهم بنعم الله عليهم وتخويفهم من عذابه وقد روى لنا القرآ الكريم صور مما قدمه انبياء هذه المرحلة لأقوامهم ونحن نقتطف فيما يلي بعضها : —

— من قول نوح « **استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم اطوارا الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله انبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا** » (نوح : ١٠ — ٢٠) .

— من قول هود « **واتقوا الذي امدكم بما تعلمون امدكم بانعام وبنين وجنات وعيون اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم** » (الشعراء : ١٣٢ — ١٣٥)

—من قول ابراهيم : ((**واتل عليهم نبا ابراهيم اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين وقال هل يسمعونكم اذ تدعون او ينفعونكم او يضرون ؟ قالوا بل وجدنا اباءنا كذلك يفعلون قال افرايتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى اطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين**)) . (الشعراء : ٦٨ — ٨٢) . وقد توجد معجزة فى أديان هذه المرحلة وذلك اذا طلبها أصحاب الرسول كقوم صالح هتفوا به ((**ما أنت الا بشر مثلنا فات بآية ان كنت من الصادقين**)) (الشعراء : ١٥٤) فجاءتهم الناقة معجزة لهم أما أديان المرحلتين الثانية والثالثة فالمعجزة ضرورية فيها ولذلك تأتى المعجزة مع الدعوة بدون طلب وذلك لأن بأديان هاتين المرحلتين تكاليف يتوقف تصديقها واتباعها على المعجزة المقدمة ففى أديان بنى اسرائيل تشريع ودين الاسلام انقلاب اجتماعى وفكرى لما كانت عليه البشرية قبله فلا بد من تقديم معجزة لتكون دليلا للناس على صدق النبى على انه يمكن أن يقال أن الاسلام مر بمرحلتين كان قبل الهجرة قليل التشريعات والتكاليف فاتجه للدعوة للتوحيد وترك عبادة الأوثان فسار على نمط أديان المرحلة الأولى من الحث على استعمال العقل والتخويف والانذار قال تعالى : ((**افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الأرض كيف سطحت فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر**)) (الغاشية : ١٧ — ٢٢) وبعد الهجرة برزت معجزات الاسلام وقد تجىء هذه المعجزات أمرا خارقا للعادة على العموم كناقة صالح التى خرجت من الصخرة كما يقول بعض المفسرين والتى كان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم كما ورد فى القرآن الكريم وقد تجىء المعجزة من جنس شىء اشتهر فى عهد المرسل اليهم كاشتهار السحر فى عهد موسى والبلاغة فى عهد محمد ولذلك تجىء معجزة موسى اشبه بالسحر ولكنها أعلى مستوى ويجىء القرآن معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم وهى فى أعلى درجات البلاغة أو أقل درجة من البلاغة لا يعرفها مستوى البشر » .

شروط المعجزة :

— أن يكون ذلك الخارق فعلا لله تعالى لأن التصديق منه تعالى فلا يكون الخارق من فعل غيره وهذا الخارق اما يكون فعلا أو كفا .

— أن تكون المعجزة خارقة للعادة فلو قال المدعى معجزتى طلوع الشمس غدا لم يكن ذلك معجزا .

— أن يتعذر معارضته لأن ذلك معنى الاعجاز .

— أن يكون ذلك من مدعى النبوة .

— أن يكون الخارق موافقا لطلب الرسول فاذا قال معجزتى احيـاء هذا الميت فظهر خارق آخر لم يكن معجزا .

— الا يكذبه فاذا قال معجزتى نطق هذا الضب فنطق بانه كذاب لم يكن معجزا .

— أن يكون الخارق مقارنا للدعوى فلا يكـون قبلهـا فان قال معجزتى ما حصل منى من الخوارق قبل بعثتى فلا يصدق ويطالب بالاتيان بخارق جديد فان أتى به صدق والا يتعين كذبه .

ولكن هناك من ينكر اثبات النبوة على غير المشاهدين مثل الغائبين والذين يتأخرون فى وجودهم عن زمان النبى صلى الله عليه وسلم الذى تظهر المعجزة على يديه وحجتهم فى ذلك أن أقوى طرق نقل المعجزة الى الغائبين « هو التواتر وهو لا يفيد اليقين لأن جواز الكذب على كل أحد يوجب جوازه على الكل لكونه نفس الاحاد ولأنه لو افاد اليقين لأفاده خبر الواحد لأن كل طبقة يفرض عدد التواتر فعند نقصان واحد منه ان بقيت مفيدة لليقين وهكذا الى الواحد فظاهر . وان لم تبق كان المفيد هو ذلك الواحد الزائد ولأنه غير مضبوط بعدد بل ضابطه حصول اليقين فاثبات اليقين به يكون دورا (١) » .

« ولهذا لزم أن نتكلم على افادة الخبر المتواتر للعلم أما الافتراضات المتقدمة فقد قال عنها السعد فى المقاصد انها لا تستحق الجواب »

والحق أن الخبر المتواتر مصدر كبير من مصادر المعرفة الانسانية ولولاه لما علمنا بكثير من المعارف فإن كل الحقائق التاريخية كالعلم بالأنبياء السابقين والملوك و قيام الدول وسقوطها والعلوم التى دونها السلف انما عرفناها عن طريق الخبر المتواتر .

فالخبر المتواتر مثل الذى اتصل بك من رسول الله صلى الله عليه وسلم اتصالا بلا شبهة حتى صار كالمعاين المسموع منه وذلك بأن يرويه قوم لا يحصى عددهم ولا يتوهم تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وعدالتهم وتباين أماكنهم ، ويدوم هذا فى وسطه وآخره كأوله وذلك مثل القرآن والصلوات الخمس وأعداد الركعات ومقادير الزكوات وضابط التواتر أن يبلغ الرواة حدا من الكثرة تحيل العادة معه عدم تواطؤهم على الكذب ولابد أن يكون ذلك متحققا فى جميع طبقاته أوله منتهاه ووسطه وذلك بان يروى جمع عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم يروى عنهم جمع مثلهم وهكذا حتى يصل الينا عند التحقيق رواية الكافة عن الكافة .

ويشترط الغزالى فى افادة التواتر للعلم اليقينى أربعة شروط :

— **الأول** : أن يخبر القوم عن علم لا عن ظن فان أهل بغداد لو أخبرونا عن طائر انهم ظنوه حماما أو عن شخص ظنوه زيدا لم يحصل لنا العلم بكونه حماما أو زيدا .

— **والثانى** : أن يكون علمهم الذى يخبرون عنه ضروريا مستندا الى محسوس اذ لو أخبرنا أهل بغداد عن حدوث العالم أو عن صدق بعض الأنبياء لم يحصل لنا العلم بأخبارهم .

— **والشرط الثالث** : هو مساواة الوسط للطرفين فى هذه الصفات وفى كمال العدد فيكون فى كل مرتبة مبلغ يحيل العقل تواطؤهم على الكذب فاذا نقل الخلف عن السلف وتوالت الاعصار ولم تكن الشروط قائمة فى كل

عصر لم يحصل بصدقهم لأن خبر أهل كل عصر خبر مستقل بنفسه فلا بد فيه من الشروط ولأجل ذلك لم يحصل لنا العلم بصدق اليهود مع كثرتهم فى نقلهم عن موسى تكذيب كل ناسخ لشريعته ولا يصدق الشيعة والعباسية والبكرية فى نقل النص عن امامة على أو العباس أو أبى بكر رضى الله عنهم وان كثر عدد الناقلين فى هذه الاعصار القريبة

لأن هذا وضعه الأحاد أولا ثم أفشوه ثم كثر الناقلون فى عصره وبعده والشرط انما حصل فى بعض الأعصار فلم تستوفه ولذلك لم يحصل التصديق بخلاف وجود عيسى عليه السلام وتحديه بالنبوة ووجود أبى بكر وعلى رضى الله عنهما وانتصابهما للامامة فان كل ذلك لما تساوت فيه الأطراف والواسطة حصل لنا علم ضرورى لا تقدر على تشكيك انفسنا فيه .

ـ والشرط الرابع : هو أن يكون العدد كاملا ليس بناقص ليفيد الخبر العلم الضرورى الا أن هذا العدد ليس محصورا فى عدد معين فأقل عدد يحصل به العلم الضرورى معلوما لله تعالى وليس معلوما لنا ولا سبيل الى معرفته فاننا لا ندرى متى حصل علمنا بوجود الأنبياء عليهم السلام عند تواتر الخبر الينا وأنه بعد خبر المئة او المئتين . فان قتل رجل فى السوق وانصرف جماعة عن موضع القتل ودخلوا علينا يخبرونا عن مقتله فقول الأول يحرك الظن وقول الثانى والثالث يؤكده ولا يزال يتزايد تأكيده الى أن يصير ضروريا لا يمكننا أن نشكك فيه أنفسنا .

فان قيل فكيف علمتم حصول العلم بالتواتر وأنتم لا تعلمون أقل عدده قلنا كما نعلم أن الخبز يشبع والماء يروى والخمر يسكر وان كنا لا نعلم اقل مقدار منه ونعلم ان القرائن تفيد العلم وان لم نقدر على حصر اجناسها وضبط اقل درجاتها .

النبوة فى نظر الفكر اليهودى والمسيحى :

تحدث القرآن عن الأنبياء أو أكثرهم فصورهم صورة كريمة . وأبرزهم فى اطار من الفضائل والصفات . فهم أقوى البشر وأجدرهم بحمل الرسالات ودعوة الخلق الى الله والمساس بعصمة أى نبى من هؤلاء ليس افتراء على الحق فقطبل هو طعن فى الحكمة الالهية التى اختارتهم على علم . ولكن اذا شئنا نذهب للبحث عن هذه المعانى فى التوراة كتاب اليهود والنصارى المقدس . فلا نجد أن هذه المعانى قد ارتبطت أو عرفت فى تاريخ النبوة المدعاة فى اليهودية . فاليهود استبد بهم الضلال ونسبوا الى انبيائهم ما لا يمكن أن يصدر من أنبياء فان انبيائهم وأنبياء من قبلهم قد قارفوا جميع الخطايا . ومن يطالع النبوة فى العهد القديم لا يرى لها ذلك الصفاء ولا هذا البهاء المذكور فى القرآن الكريم . بل تراها ذابلة شاحبة ونجد فى هذا الكتاب ما يملأ الانسان بالحيرة والدهشة فقد وصف

هذا الكتاب الأنبياء بأخس الصفات . وقبح الفعال التى لا تليق برجل عادى فضلا من ان تنسب الى نبى من أنبياء الله مخالفة بذلك للمعقول والمنقول . ومجافية لكل عرف وأدب فلم يسلم واحد من الأنبياء الأول العظام . ولا من اتى بعدهم من التلطيخ . فاتهموهم بالزنا والوثنية والغواية والسرقة وشرب الخمر .

وفيما يلى بعض نماذج من الأنبياء مما شوهت التوراة سيرتهم :

ابراهيم عليه السلام اتهمته التوراة بالكذب والحقت به اخس الصفات . **تقول** التوراة « وحدث جوع فى الأرض . فانحدر ابرام الى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع فى الأرض كان شديدا . وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارى امراته : انى قد علمت انك امرأة حسنة المنظر فيكون اذ رآك المصريون انهم يقولون هذه امراته فيقتلوننى ويستبقونك . قولى انك اختى . ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من اجلك » (تك ١٠ : ١٣) .

هذا هو ابراهيم الخليل الذى يقول فيه القرآن الكريم : « **واذكر فى الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك من الله شيئا يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى اهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا** » (مريم ٤١ : ٤٤) . وهكذا يصف القرآن الكريم ابراهيم اجمل وصف ويضعه فى مكانة سامية بين الأنبياء .

اما لوط عليه السلام فيضاجع بناته وهو سكران « وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه . لأنه خاف أن يسكن فى صوغر . فسكن فى المغارة هو وابنتاه وقالت البكر للصغيرة . أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقى ابانا خمرا ونضطجع معه فنحيى من ابانا نسلا . فسقتا اباهما خمرا فى تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث فى الغد ان البكر قالت للصغيرة انى قد اضطجعت البارحة مع ابى . نسقيه خمرا الليلة ايضا فادخلى اضطجعى معه فنحيى من ابانا نسلا . فسقتا اباهما خمرا فى تلك الليلة ايضا . وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت ابنتا لوط من أبيهما . فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب وهو ابو الموابيين الى اليوم . والصغيرة ايضا

ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى وهو أبو بنى عمـــون الى اليوم (تك : ٣٠ : ٣٨) هذا هو لوط الذى يقول فيه القرآن الكريم : ((**ولوطا اتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين**)) (الأنبياء : ٧٤) .

لقد نجـــا الله لوطا وبنتاه بعد أن أهلك قومه ولكن كتاب العهـــد القديم يفترون على لوط وبنتاه هذا الافتراء الباطل ويلفقون لبنتاه هـــذه الخطيئة الكاذبة وذلك لأن كبرى بنات لوط هى ام موآب والـــد الموآبيين والصغرى أم بن عمى والد بنى عمون . واذا عرفنا أن بنى عمون والموآبين أعداء اليهود لأنهم رفضوا استقبال آباء اليهود عند مجيئهم من مصر كما تذكر ذلك التوراة « فى ذلك اليوم قرىء فى سفر موسى على مسامع الشعب فوجد فيه مكتوبا الا يدخل العمونيون ولا الموآبيون فى جماعة الله الى الابد لأنهم لم يتلقوا بنى اسرائيل بالخبز والمـــاء بل استأجروا عليهم بلعـــام ليلعنهم فحول الهنا اللعنة بركة (نح ١ : ٣) .

الا يوضح ذلك سبب هذه الفرية على لوط وبنتاه فجعلوه يســـكر ويزول عقله ويفعل بابنتيه ما فعل . بحيث لم يســـمع مثله من المولعين بشرب الخمر . وظاهر أن الخمر أم الخبـــائث وقبيحة عند الله وســـبب الضلال والكفر والهلاك وشربها غير مناسب للأتقياء لأن ازالة العقل من خواصها اللازمة سواء كان الشارب نبيا أو غير نبى ولذلك حرم الله شربها على هارون وأولاه اذا أرادوا الدخول فى قبة الشهادة لأجل الخدمة وجعلها سببا للموت وجعل حرمتها عهدا أبديا معهم فقد جاء فى ســـفر اللاويين « وكلم الرب هارون قائلا خمرا وسكرا لا تشرب أنت وبنوك معك عنـــد دخولكم الى خيمة الاجتماع لكى لا تموتوا . فرضا دهريا فى أجيالكم . وللتمييز بين المقدس والمحلل وبين النجس والطاهر ولتعلم بنى اسرائيل جميع الفرائض التى كلمهم الرب بها بيد موسى » (١٠ : ٨ : ١١) وجاء فى سفر القضاة أن الرب منع زوجة منوح من شرب الخمـــر وشرب كل مسكر وقت حملها ليكون ولدها من الأتقياء . ولا يسرى خبث المسكرات فى هذا الولد النقى « والآن فاحذرى ولا تشربى خمرا ولا مسكرا ولا تأكلى شيئا نجسا فها انك تحبلين وتلدين ابنا » (١٣ : ٤) « فقال ملاك الرب لمنوح من كل ما قلت للمرأة فلتحتفظ من كل ما يخرج من جفنة الخمر لا تأكل وخمرا أو مسكرا لا تشرب » (قض ١٣ : ١٣ : ١٤) .

أما عن يعقوب فلقد حرص واضعوا التوراة ان يصوروه فى صورة الساعى لينال ميراث أبيه بالغش والخبث والخداع والسرقة والكذب (تك ٢٧ : ١ : ٤٥) .

ويذكر ابن حزم وجوه الغش والخداع فى هذه القضية فيقول : أول ذلك اطلاقهم على نبى الله يعقوب عليه السلام انه خدع أباه وغشه وثانيهما اخبارهم ان بركة يعقوب انما كانت مسروقة بغش وخديعة وتحايث وثالثا هى اخبارهم ان الله تعالى أجرى حكمه وأعطى نعمته على طريق الغش والخديعة ثم يقول هذه وجوه الغش والخبث أما وجوه الكذب فكثيره منها نسبتهم الكذب الى يعقوب عليه السلام فى أربعة مواضع أولها وثانيها قوله لأبيه اسحق أنا ابنك عيسو وبكرك فهاتان كذبتان فى نسق لأن لم يكن ابنه عيسو ولم يكن بكره وثالثها ورابعها قوله لأبيه صنعت جميع ما قلت لى فاجلس وكل من يدى فهاتان كذبتان فى نسق لأن لم يكن قال له شيئا ولا أطعمه من جيد « .. وهذا مبعد عمن فيه خير من أنباء الناس من الكفار فكيف من نبى ومع أبيه يخدع أبيه ويغشه وحاشا لله ان يعطى نعمته على طريق الغش والخديعة ان الخبث والغش والخديعة والكذب لهى صفات اليهود فلا تجد منهم الا الخبث الخارع والشاذ .

ولقد خدع الكثير بما ورد فى هذا السفر من أكاذيب على يعقوب جعلت مفكر مثل سميث يعلق ويقول على تصرفات يعقوب التى وردت فيه : لا نجد بحال من الأحوال وسيلة لقبول تصرفات يعقوب فقد كان واضحا أنها غير عادلة وكان يسلك مختلف السبل وينتهز كل الفرص لينال حقول أخيه ويستند الى أساليب المكر والختل والحيل لتحقيق أهدافه ولنقارن ما جاء فى التوراة عن يعقوب وما جاء عنه فى القرآن الكريم : يقول الله عن يعقوب **« ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم »** (الأنبياء : ٧٢ : ٧٣) .

وهذا داود النبى الأواب الذى أتاه الحكمة وفصل الخطاب .. **« وأتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء »** (البقرة : ٢٥١) .

« وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » (ص : ٢٠) .

تزعم التوراة فى كلام طويل أن داود أعجب بامرأة جار له فدخل بها. وحملت منه فاحتال على قتل زوجها فى الحرب « وكان فى وقت المساء أن

داود قام عن سريره . وتمشى على سطح بيت الملك فرأى على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد اليست هذه بثشبع اليعام امرأة أريا الحثى فارسل داود رسلا واخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهى مظهرة من طمثها . ثم رجعت الى بيتها وحبلت المرأة . فأرسلت واخبرت داود وقالت انى حبلى » (٢ ص ١١ : ٣ : ٥) .

ولكن كيف تصرف داود فى هذا الأمر ؟

فى الصباح كتب داود مكتوبا وأرسله الى يوآب بيد أوريا . وكتب فى المكتوب يقول : اجعلوا أوريا فى وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه. فيضرب ويموت » (٢ ص ١١ : ١٤ : ١٥) . ثم جاءت الرسل الى داود بأخبار القتال . وعلمت زوجة أوريا بقتل زوجها . فلما انتهت المناحة ضمها داود الى نسائه ، وتأتى ثمار هذه الجريمة المنزلة على نبى الله داود شوكا وحنظلا فيما يزعم اليهود . فتروى التوراة نقل الخطيئة عن داود الى غيره . فيموت الطفل الذى تخلق من الزنا . وينذر الرب بأنه سيأخذ أزواجه ويدفعهن الى غيره فيدخل عليهن فى عين الشمس وعلى عيون جميع بنى اسرائيل . (٢ ص ١٢ :) .

ولم يكن سليمان بأسعد حالا من أبيه عند اليهود . سليمان الذى يقول عنه القرآن الكريم « **يأيها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شىء . ان هذا لهو الفضل المبين وحشد لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون** » (النمل ١٦ : ٢٧) .

تصوره التوراة فى أواخر حياته بأنه يتخذ التماثيل ليتقرب اليها بالعبادة « وكان فى زمان سيخوخة سليمان ان نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب الهه كقلب داود أبيه » (١ مل ١١:٤) .

ولا ينجو موسى وهارون من التلطيخ فتقول عنهماالتوراة انهما خانا ربهما ولهذا حرمهما من دخول الأرض المقدسة ويموتا فى سيناء . ويقول لهما لأنكما خنتمانى ولم تقدرا شأنى لن تدخلا الأرض التى تفيض لبنا وعسلا ويدخلها يشوع بن نون وكالب بن يفنة (عد ١٤ : ٢٤) .

ولقد كان موسى يسرق ويأمر بالسرقة « وصنع بنوا اسرائيل كما أمر موسى فطلبوا من المصريين امتعة فضة وامتعة ذهب وثيابا واعطى

الرب للشعب نعمة فى عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين » (خر ١٢ : ٣٦، ٣٧) . أما هارون فان التوراة تتهمه بانه عبد العجل الذى صنعه للقوم من حيلهم . أما القرآن فقد بين أن الله رعى موسى ونشأه نشأة طيبة . واصطفاه لرسالته . وشد أزره بأخيه هارون ((انى اصطفيتك على الناس برسالتى وبكلامى فخذ ما اتيتك وكن من الشاكرين)) (الأعراف : ١٤٤) .

هؤلاء هم الانبياء الذين أرسلهم الله الى الخلق لكى يبلغوا تعاليمه وشرائعه ولابد أن توجد فيهم صفات الكمال البشرى . وأن يتنزهوا عن صفات النقص البشرى الخلقية والخلقية . فهم صادقون فى أقوالهم وأفعالهم منزهون عن الكذب ذلك لأنهم يبلغون عن ربهم وخالقهم وحيه وتعاليمه . فلابد أن يكون كلامهم صدقا . فانه لو جاز عليهم الكذب أو وقع منهم ما صدقتهم أممهم . وهم كذلك أمناء فانه لو جازت عليهم الخيانة لخانوا فى تعاليم المولى جل شانه . ولو جازت عليهم الخيانة كانوا كاذبين فى اقوالهم فلا يصدقهم أقوامهم فى دعوتهم . كما يجب اتصافهم بالفطنة والذكاءحتى يفهم الحديث وما يقال له ويسرع فى الاجابة عليه . فهل آمن اليهود بهذه الصفات ؟ وهل وصفوا الأنبياء بما يليق ؟ ان توراتهم صورتهم زناة — سرقة — كاذبين — مخادعين — غشاشين — يعبدون الأوثان . وهذه أشياء لم تحدث من الأنبياء « ولكن الأقلام التى كانت تكتب التوراة من اليهود الذين ضرب عليهم السبى فى بابل ممن كانوا يرون نساءهم سبايا وأولادهم عبيدا وبناتهم يقدمن عرايا المتعة فى قصور فارس راحوا يلطخون كل شىء ويلقون القذر الذى كانوا يعيشون فيه على وجه التاريخ كله » .

ولعل فى بعض ما عرضته عينة عما سواه تشير الى جناية الخلط فى الكتاب عن آداب وأخلاق انبياء . ولسنا بحاجة الى التذكر بأن ما خالف المعقول والمنقول ليس من دين الله ولا هدى الأنبياء قط . ولكن الذى لا شك فيه أن اليهود عمدوا من هذه التعاليم الى اشاعة الفوضى الخلقية والانحلال فى المجتمعات أسوة لما حدث لهم أثناء السبى البابلى وكتاب هذه هى صفاته لا يمكن أن يكون وحيا من السماء .

مما سبق يتضح انه لا مجال من الادعاء بأن كل سفر من اسفار العهد القديم كتب بالهام . وهذا ما ذهب اليه جيروم — كريتس — ارازفس — بركوبيس وغيرهم من العلماء بقولهم من انه ليس كل قول فى العهد

القديم الهاميا . والذين يقولون ان كل قول فيه الهامى لا يقدرون أن يثبتوا دعواهم لوجود الكثير من الاختلافات والأغلاط والتحريفات فى العهد القديم ولأن توراة موسى الأصلية حرفت والتى عليها جامعوها وكاتبوها كثيرا مما كانت تنزع اليه نفوسهم وتجيش به آمالهم وتصوره لهم أحلامهم . فاختلط فيها الحق بالباطل وامتزج فيها ما نزل من السماء بما انبتت الأرض وانتهى بها الأمر الى هذه المتناقضات التى رسخت وصارت معتقدا .

فالتوراة الموجودة حاليا مجموعة من الروايات الصحيحة والكاذبة . مكتوبة بعد زمان طويل من موت موسى عليه السلام . واننا نقرر اقرارا لا يخالجنا فيه شك بان موسى جاء بدين سماوى يدعو الى ما يدعو الى وحدانية الله . كما انه جاء بشريعة متكاملة البنيان .

لقد أحصى القرآن الكريم النبوءات الغابرة . فلم يدع نوعا واحد يعرفه اليوم أصحاب المقارنة بين الأديان لم يذكره . فذكر نبوءة السحر — ونبوءة الرؤى والأحلام ونبوءة الكهانة — ونبوءة الجذب — ونبوءة التنجيم . وكلها مما يدعيه المتنبؤن ويدعون معه العلم بالغيب والقدرة على تسخير نواميس الطبيعة . ولكنها على اتفاقها فى هذه الدعوة تختلف فى مصادرها ونظرة الناس اليها أيما اختلاف . فنبوءة السحر يغلب عليها انها موكلة بالأرواح الخبيثة تسخرها للاطلاع على المجهول أو السيطرة على الحوادث والأشياء ونبوءة الكهانة يغلب عليها انها موكلة بالأرباب لا تطيع الكاهن ولكن تلبى دعواته وصلواته وتفتح له مغالق المجهول فى يقظته أو منامه . وترشده بالعلامات والأحلام . يقول ابن خلدون « فالكهانة من خواص النفس الانسانية التى عندها الاستعداد للانسلاخ عن البشرية الى الروحانية التى فوقها وأنه يحصل من ذلك لمحة للبشر بما فطروا عليه من ذلك ويحصل هذا للأنبياء من غير اكتساب ولا استعانة بشىء من المدارك ولا من التصورات . ولا من الأفعال البدنية كلاما أو حركة . وانما هو انسلاخ الى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر . ولكن هناك صنفا من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل . لأن عدم الاستعانة فى ذلك الادراك ضد الاستعانة وفيه وشتان ما بينهما وهذا الصنف من البشر مفطورا على أن قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عندما يبعثها النزوع لذلك وهى ناقصة عنه بالجبلة عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو مستخيلة كالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وماسنح من طير أو حيوان . ويستخدم ذلك التخيل أو الاحساس مستعيذا

به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده . ويكون كالمشيع له . وهذه القوة التى فيها مبدأ لذلك الادراك هى الكهانة ولكون هـذه النفوس مفطـورة على النقص والقصور عن الكمال كان ادراكها فى الجزئيات اكثر من الكليـات . ولذلك تكون المخيلة فيها فى غاية القوة لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذا تاما فى نوم او يقظة . وتكون عندها حاضرة . تحضرها المخيلة وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائما ولا يقوى الكاهن على الكمال فى ادراك المعقولات لأن وحيه من وحى الشيطان وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة يشتغل به عن الحواس ويقوى بعض الشىء ذلك الاتصال الناقص فيهجس فى قلبه عن تلك الحركة الذى يشيعها من ذلك الأجنبى ما يقذفه على لسانه فربما صـدق ووافـق الحق وربمـا كذب لأن يتم نقصه بأمر اجنبى عن ذاته المدركة . وميادين لها غير ملائم له الصدق والكذب جميعا . ولا يكون موثوقا به وربما يفزع الى الظنـون والتخمينات حرصا على الظفر بالادراك بزعمه وتمويهـا للسـائلين . واذن فهناك فرق بين النبوة والكهانة فالنبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الأعلى من غـير مشـيع ولا استعانة بأجنبى . والكهـانة يحتاج صـاحبها بسـبب عجزه الى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة فى ادراكه والتبست بالادراك الذى توجه اليه فصار مختلطا بها الكذب من هذه الجهة فامتنع أن يكون نبـوة .

ونبوءة السحر ونبوءة الكهانة تخالفان نبوءة الجذب لأن السـاحر والكاهن يدريان ما يطلبـانه ويريدانه قصـدا ما يطلبـانه بالعزائم أو الصلوات . ولكن المجذوب مغلوبا على أمره ينطلق لسـانه بالعبـارات المبهمة . وهو لا يعنيها ولعله لا يعيها ويكون دائمـا مع المجذوب مفسر يدعى العلم بمغزى كلامه . وقلما يتفق الكاهن والمجذوب الا أن يكـون الكاهن متوليا للتفسير والتعبير عن مقاصد المجذوب ومضامين رموزه واشاراته ويحدث فى اكثر الأحيان أن يختلفا ويتنـازعا لأنهمـا مختلفـان بوظيفتهما الاجتماعية . مختلفان بطبيعة النشأة والبيئة فالمجذوب ثائر لا يتقيد بالمراسم والأوضاع المصطلح عليها . والكاهن محافظ يتلقى علمه الموروث فى اكثر الأحيان من آبائه وأجداده . وتتوقف الكهانة على البيئة التى تنشأ فيها الهياكل والصوامع ولا يتوقف الجذب على هذه البيئة لأنه قد يعترى صاحبه فى البرية كما يعتريه فى الحضر .

وبنو اسرائيل آمنوا بكل هذه النبوءات جميعا . نبوءة السحر — نبوءة الكهانة والتنجيم والجذب وابتكروا منها ما ابتكروه واقتبسوا منها

ما اقتبسوا بعد اتصالهم بجيرانهم أهل البادية وأهل الحضر . وحتى بعد ارتقائهم الى الايمان بالنبوة الالهية ما زالوا يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية .

وهؤلاء الأنبياء الذين ظهروا فى بنى اسرائيل بعد موسى وذكرتهم التوراة وغطوا فترة زمنية تمتد بين حوالى ١٣٠٠ — ٣٠٠ ق . م ينقسموا الى فئتين : —

اولا : الانبياء الاول هم : —

يوشع بن نون — القضاة — صموئيل — والملوك . وكنت أقوالهم وكتاباتهم تجنح نحو التاريخ السياسى والفكرى والبحث ولا تبدو فيه النبوءة الا من خلال الأحداث مرتبطة بها ومعتمدة عليها .

ثانيا : الانبياء الاخر :

وهم القادة الروحيين الذين حاولوا بطرق شتى الأخذ بيد اليهود نحو السلامة فى ظروف سياسية وعسكرية واجتماعية حالكة . احاط بهم فيها الأعداء كل جانب . واذا كانت نبوءات هؤلاء الأنبياء فى معظمها لم تفقد كثيرا عندما كان أصحابها ما يزالون بعد على قيد الحياة الا أن هذا التراث قد بقى مصدر أمل لليهود يؤولونه ويشكلونه بحسب الظروف . فهذا أمل فى مغفرة الله حينا فى الخلاص أحيانا وأمل فى العودة الى فلسطين عند الكثيرين منهم . بل أمل فى السيطرة على العالم بل على الانسانية كلها لدى جماعات ممن يلوكون هذه النصوص ويحملونها ما شاء لهم الخيال .

وهؤلاء هم الأنبياء كما رتبهم لوسيان جوتييه ومؤلفو قاموس الكتاب المقدس : —

(أ) انباء ما قبل السبى البابلى :

عاموس من ٧٦٠ — ٧٤٦ ق.م
هوشع من ٧٥٠ — ٧٢٢ ق.م
أشعيا من ٧٣٧ — ٦٨٠ ق.م

ميخا من	٧٤٠ — ٧٠١	ق٠م
ناحوم من	٦٢٣	ق٠م
ارميا من	٦٢٦ — ٥٨٦	ق٠م
صفنيا	٦٢٥ أو ٦٣٠	ق٠م
حبقوق	٦٠٥ أو ٦٠٨	ق٠م

(ب) انبياء عاصروا السبى البابلى :

حزقيال من	٥٩٣ — ٥٧٠	ق٠م
دانيال من	٦٥٥ — ٥٣٧	ق٠م

(ج) أنبياء ما بعد السبى البابلى :

حجى	٥٢٠	ق٠م
زكريا	٥٢٠ أو ٥١٨	ق٠م
عوبديا	٤٥٠	ق٠م
ملاخى	٤٥٠	ق٠م
يوئيل	٤٠٠ أو ٥٠٠	ق٠م

ويختلفون فى يونان هل هو من انبياء ما قبل السبى أو من انبياء ما بعد السبى فيضعه لوسيان جوتيه فى انبياء ما قبل السبى اى عام ٧٨٥ — ٧٤٥ ق٠م ٠

اما القاموس المقدس فيضعه فى انبياء ما بعد السبى أى فى القرن الرابع ق ٠م وهذا الترتيب العلمى التاريخى لهؤلاء الأنباء يختلف عن الترتيب المذكور فى العهد القديم الموجود بين أيدينا اذ انه ياتى على النحو التالى : —

اشعيا — ارميا — حزقيال — هوشع — يوئيل — عاموس — عوبديا — يونس — ميخا — ناحوم — حبقوق — حجى — زكريا — ملاخى ٠

وهؤلاء الذين يطلق عليهم انبياء بنى اسرائيل لم يكونوا كلهم يستحقوا الاحترام فقد كان معظمهم متهوسون ٠ مجذوبون يستثيرون مشاعر الناس بالموسيقى والرقص وينطقون اثناء غيبوبتهم بعبارات يراها اصحابها وحيا أوحى اليهم ولم يكن لهم سند يستندون اليه الا اعتقادهم بحلول روح الله فيهم اذ تقفز روح الله على النبى كما يقفز الطير الجارح (١ ص : ١٠ : ١٠) ٠

وكان اليشع يجرى طقوسا خاصة لاستقبال روح الله فكان يستدعى عازفا على الأوتار ليعرف له بعض الألحان (٢ مل ١٨ : ٢٦)واذا ما حلت الروح بالنبى انطرح ارضا طوال النهار والليل فاقد الوعى — وهو فى حالة غيبوبة . وقد يظهر فى حالة تشبه حالة المجانين (١ ص ١٩ : ١٨ : ٢٤) .

فمرض شاؤول العقلى اعتبروه نبوة . والنبى كالمجنون غير مسئول عما يفعل فهو يأت بحركات تريدها الروح كأن يتنقل من مكان الى آخر مثلا (مل ١٨ : ١٢) وابان فترة حلول الوحى بالنبى يتفوه بالفاظ وعبارات يتلقفها الجمهور على انها نبوءات تتحدث عن المستقبل . لذلك حرص القوم على تخليدها وتسجيلها . وقد جاء فى سفر صموئيل « انك تصادف هناك زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وامامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبأون فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم » (١ ص : ١٠ : ٥) وكان هؤلاء الأنبياء يطلبون حالة الكشف كما يطلبهـــا المتصـــوفة وذلك بالزهد والصيام فيكشف عن بصره أو بصيرته الستار . المادى الذى يحول بينـــه وبين رؤية ربه بالقلب فيرى ذلك النبى ما لا يستطيع الناس أن يروه ويسمع ما لا يستطيع أن يسمعون ثم ينبأهم بما رأى وما سمع مصـــورا لهم جلال العظمة الالهة آمرا اياهم بما امره الله به ناهيا عما نهى عنه .

يقول دانيال « لم آكل طعاما شهيا ولم يدخل فى فمى لحم ولا خمر ولم ادهن حتى نمت ثلاثة اسابيع وفى اليوم الرابع والعشرين من الشهـــر الأول كنت الى جانب النهـــر العظيم دجلة ورفعت عينى ونظرت فاذا برجل لابس كتـــانا وحقواه متنطقان بذهب أو فاز وجسمه كالزبرجد المصـــقول ووجهه كمنظر البرق . وعيناه كمصباحى نار . وذراعاه ورجـــلاه كعين النحاس المصقول وصوت كلامه كصوت جمهور . فرايت انا دانيال الرؤيا وحدى والرجـــال الذين كانوامعى لم يروا الرؤيا لكن وقع عليهم ارتعـــاد عظيم » (دان : ١٠ : ٣ : ٧) .

وهذه المعرفة التى حدثت لدانيال هى ما نسميها بالمعرفة الذوقية وهى من العلوم الالهامية التى تنكشف فى القلب انكشافا او تلقى فيه القاء بدون ادنى جهد أو اختيار . ولا فرق بينها وبين الوحى الى أن صاحبها لا يدرى كيف القيت فى قلبه ولا من القاها . اما الموحى اليه فيـــدرى الواســـطة الملقية اليه وهو الملك . وكلا النوعين من معدن واحد وهو العلم اللدنى الذى لا دخل لكسب الانسان فيه وعلوم هؤلاء الأنبيـــاء مثل علـــوم اهل التصوف التى يقوم عنها الامام الغزالى « ان اهل التصوف يميلون الى العلوم

الالهامية دون التعليمية . ولذلك لم يحرص الكثيرون منهم على دراسة العلم وتحصيل المصنفون ولا البحث فى الاقاويل والأدلة . وانما لزموا طريق المجاهدة والتصفية وقطع العلائق بكل ما سوى الله فاذا تم لهم ذلك تولى الله قلوبهم واذا تولى قلب عبد فاضت عليه الرحمة واشرق فيه النور وانكشف له سر الملكوت . وتلالأت فيه حقائق الأمور الالهية فاذا صدقت ارادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تتجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا . تلمع لوامع الحق فى قلبه . ويكون فى ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود . وقد يتأخر وان عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا . وان ثبت فقد يطول ثباته وقد لا يطول » وهذه المعرفة الذوقية أو الالهامية تحصل لصاحبها نتيجة لجهاد نفسه . وشرح الصدر ومداومة التقوى فتكشف له معانى الغيب فمعرفته بالله ليست وليدة العقل بل وليدة قوى اخرى تعلو على العقل ويظهر فيها الذوق والتروع . هذه القوة التى تعلو على العقل هى الحب لأن الحب الخالص وحده هو الذى يظهر فيه الذوق أو التروع . فالادراك الذوقى لماهية المحبوب هو الذى نسميه بالمعرفة . ويطلق على صاحبه عارفا . فالعارف هو من شرح الله قلبه « **فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام** » (الأنعام : ١٢٥) ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشرح ومعناه فقال : هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب . فقيل وما علاقته فقال التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود . فالعارف لا يلتمس شهادة الحس ولا شهادة العقل التى الفها الانسان . ولكن شاهده أمر يجده فى قلبه اتجه بهمته الى الترصد له . فتجافى عن الدنيا واغترب عنها واناب الى دار الخلود يلتمس القرب من الله والانس به والشوق اليه . والفرح بلقائه . وهذا هو الحال الذى كان عليه بعض أنبياء بنى اسرائيل ولكن بدلا من أن يكون الكشف الروحى عندهم لمسة من لمسات الصفاء ترتفع فيها حجب الهوى والضلال عن البصيرة فتدرك ما لا تدركه فى عامة أوقاته أصبح الكشف ملازما لكل من يدعى النبوة بغير حق .

وما كان لأمة من العرافين والمجاذيب مثل ما كان لبنى اسرائيل يفيض على لسانهم كلاما يشتهر بين الناس بانه وحى من السماء فيضم تباعا الى كتاب اليهود المقدس . ولقد أفرد العهد القديم لكل من هؤلاء الأنبياء سفر سماه باسمه وذكر فيه جهاد هذا النبى وحياته من مولده وحتى موته وضمت اقوال هؤلاء الأنبياء الى العهد القديم باعتبارها كلام الرب نطق به هؤلاء الأنبياء . ولذلك نجد مثلاكتاب عاموس بدأ بالتالى :

اقوال عاموس الذى كان بين الدعاة من تقوع التى رآها عن اسرائيل فى ايام عزيا ملك يهوذا . وفى أيام يربعام بن يواش ملك اسرائيل قبل الزلزلة بسنتين . فقال ان الرب يزمجر من صهيون ويعطى صوته من اورشليم فتنوح مراعى الرعاة وييبس رأس الكرمل . هكذا قال الرب » (عا ١ : ١ : ٣) .

وسفر أشعيا بدأ بالتالى : « رؤيا اشعيا ابن آموص التى رآها على يهوذا وأورشليم فى أيام عزيا ويوثام وآخاذ وحزقيـــال ملوك يهـــوذا . اسمعى أيتها السموات واصغى ايتها الأرض لأن الرب يتكلم . ربيت بنين ونشأتهم . أما هم فعصوا على الثور . الثور يعرف قانية والحمار يعرف صاحبه أما اسرائيل فلا يعرف شعبى لا يفهم » (ا ش ١ : ١ : ٣) .

ويبدأ سفر ميخا بالقول « قول الرب الذى صار الى ميخا المورشتى فى أيام يوثام وآحاز وحزقيال ملوك يهـــوذا الـــذى رآه على الســـامرة وأورشليم . اسمعوا أيها الشعوب جميعكم . اصغى أيها الأرض وملؤها . وليكن السيد الرب شاهداً عليكم السيد من هيكل قدسه » (مى ١ : ١ : ٢) .

« وحى على نينوى سفر رؤيا ناحوم » (نا ١ : ١) .

« كلام ارميا بن حلقيـــا من الكهنة الذين فى عناثوث فى ارض بنيامين الذى كانت كلمة الرب اليه فى أيام يوشيا بن آمون ملك يهوذا » (١ ر : ١ : ١ : ٢) .

« كلمة الرب التى صارت الى صنفيا بن كوشى بن جدليا بن امريا ابن حزقيا فى ايام يوشيا بن آمون ملك يهوذا » صف ١ : ١) .

« رؤيا عوبديا . هكذا قال الرب عن أدوم » (عو ١ : ١) .

« فى السنة الثانية لداريوس الملك فى الشهر السادس فى أول يوم من الشهر كانت كلمة الرب على يد حجى النبى الى زربابل بن شالتئيل والى يهوذا والى يهوشع بن يهو صادق الكاهن العظيم قائلا هكذا قال رب الجنود قائلا هذا الشعب قال ان الوقت لم يبلغ وقت بناء بيت الرب » (حج ١ : ١ : ٢) .

وهكذا كتبت اقوال هؤلاء الأنبياء على انها وحى من السماء على لسان هؤلاء الأنبياء يعزون الى يهوه ما يجيش فى صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويفتقدونها فعاموس الذى شتهر بادانته للمظالم الاجتماعية يقول على لسان يهوه » من اجل انكم تدرسون المساكين . وتأخذون منه هدية قمح . بنيتم بيوتا من حجارة منحوتة ولا تسكنون فيها . وغرستم كروما شهية ولا تشربون خمرها . لانى علمت ان ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة . ايها المضايقون البار الآخذون الرشوة — الصادون البائسين فى الباب لذلك يصمت العاقل فى ذلك الزمان لأنه ردىء واطلبوا الخير لا الشر لكى تحيوا فعلى . هذا يكون الرب اله الجنود معكم كما قلتم » (عاه : ١١ : ١٥) وكان اشعيا ينصح ان يعاملوا بالعدل وان يتركوا الأمر ليهوه فكان يقول على لسان يهوه لماذا لى كثرة ذبائحكم يقول الرب . اتخمت محرقات كباش وشحم مسمنات . وبدم عجول وخرفان وتيوس . ما اسره حينما تأتون لتظهروا امامى من طلب هذا من ايديكم ان تدوسوا دورى . لا تعودوا تأتون بتقدمه باطلة . البخور هو مكرهة لى . راس الشهر والسبت وفداء المحفل . لست اطيق الاثم والاعتكاف . رؤوس شهوركم واعيادكم بغضتها نفس . صارت على ثقلا مللت حملها . فحين تبسطون ايديكم استرعينى عنكم . وان كثرتم الصلاة . لا اسمع . ايديكم ملانة دماء . اغتسلوا اعزلوا شر افعالكم من امام عينى . كفوا عن فعل الشر . تعلموا فعل الخير — اطلبوا الحق انصفوا المظلوم — اقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة » (١ . ش ١ : ١١ : ١٧) .

وكان ارميا اشد الأنبياء حقدا على فساد قومه وكان يتخيل ان ما نزل بقومه من انحلال وانحطاط قد انزله يهوه عقابا لهم على ما ارتكبوه من الذنوب فكان يقول على لسان يهوه « حقا انه كما تخون المراة قرينها . هكذا خنتمونى يا بيت اسرائيل يقول الرب . سمع صوت على الهضاب بكاء تضرعات بنى اسرائيل لأنهم عوجوا نسوا الرب الههم . ارجعوا ايها البنوة العصاة فاشفى عصيانكم » (١ ر ٣ : ٢٠ : ٢٣) .

ومع الحوادث الجسام التى تعرض لها اليهود فى ابان السبى البابلى وما كان قد سبقه من فساد فى عهد ملوك اسرائيل ويهوذا .. اصبح حلم الأنبياء والمصلحين والكثرة من اليهود ان ياتى ملك فذ مخلص معه القوة والبركة يعيد الأمجاد السالفة فيكون هو الملك بحق وهو المسيح . ونرى هذه الفكرة واضحة متبلورة فى قول النبى اشعيا . فاشعيا يقول « ها العذراء تحبل وتلد ابنا » (١ ش ٧ : ١٥) .

« يولد لنا ولد وتعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا . ويكون الها قديرا أبا أبديا رئيس السلام . لنمو رياسته يجلس على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن الى الأبد . غيرة رب الجنود تصنع هذا (ا ش ٩ : ٦ : ٧) . ويكون ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتنى بقية شعبه التى بقيت من آشور ومن مصر ومن حماه ومن جزائر البحر ويرفع راية الامم . ويجمع منفى اسرائيل ويضم مشتتى يهوذا من اربعة أطراف الأرض » . (ا ش١١ ، ١١ : ١٣) . ويصف اشعيا عصر المسيا بقوله « ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال ويرتفع فوق الأرض التلال . وتجرى اليه الأمم . وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد الى جبل الرب الى بيت اله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك فى سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب . فيقضى بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب فى ما بعد » ا ش ٢ : ٢ : ٤) ونفس المعانى رددها ميخا بقوله « ويكون فى آخر الأيام أن جبل بيت الرب يكون ثابتا فى رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجرى اليه شعوب . وتسير أمم كثيرة ويقولون هلم نصعد الى جبل الرب والى اله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك فى سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب فيقضى بين شعوب كثيرين . ينصف لأمم قوية بعيدة فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل . لا ترفع أمة سيفا . ولا يتعلمون الحرب فيما بعد بل يجلسون كل واحد تحت كرمته وتحت تينته (ص ٤ : ١ : ٤) . ويقول أيضا أن المسيح المنتظر سيخرج من بيت لحم ويعيد العدالة والحق الى سائر العالم » (مى ١ : ١ : ٦) وردد ارميا وعاموس نفس المعانى التى رددها اشعيا وميخا . فيقول ارميا « ها أيام تأتى يقول الرب . واقيم لداود غصن بر فيملك ملك وينجح ويجرى حقا وعدلا فى الأرض فى أيامه يخلص يهوذا ويسكن اسرائيل آمنا » ار ٢٣ : ٥ : ٦) . ويقول عاموس « فى ذلك اليوم أقيم مظلة داود الساقطة . واحصن شقوقها وأقيم ردمها وابنيها كأيام الدهر لكى يرثوا بقية أدوم وجميع الأمم الذين دعى اسمى عليهم يقول الرب الصانع هذا » (عا ٩ : ١١ : ١٢) ويقول زكريا « ترنمى وارقصى يا بنت صهيون لأنى هانذا آتى وأسكن فى وسطك يقول الرب » (زك ٢ : ١٠) .

وفكرة المسيح المنتظر نشأت لدى اليهود نتيجة اعتقادهم انهم شعب الله المختار فالباحث اليهودى ارثر هرتزبرج يقول : انه عندما تجلى الله

لبنى اسرائيل وموسى بسيناء نتج زواج الله وبين اسرائيل ويرى اليهود ان نتيجة هذا الامتياز الذى حصلوا عليه أن جعلهم هدفا للانتقام من الشعوب الأخرى ولذلك فهم يفسرون ما انزل بهم من نكبات بانه عقاب لهم على عدم حملهم الأمانة . ولكن المسيح المنتظر سوف ياتى ليحقق لهم وعود يهوه التى طال الأمد عليها .

ويرى العقاد ان فكرة المسيح المنتظر او المنقذ المخلص مستقاة من الزرادشتية التى يدين بها الفرس ويشرح جاج نترت العلاقة بين الفكر الفارسى والفكر اليهودى فى مسالة المسيح المنتظر فيقول ان الاتجاه الفارسى كان يصور انتصار الخير على الشر فى الصراع الطويل بينهما وذلك الذى اسماه الفرس خيرا هو نفسه ما اسماه اليهود المسيح ويضيف الباحث ان فكرة وجود ملك مثالى يحكم العالم كانت فكرة شائعة عند الساميين وهى تستتبع وجود عالم مثالى وهو ما اسماه اليهود من بعدهم ملكوت الله . ويرى هذا المفكر ان كلمة المسيح كانت موجودة لدى اليهود قبل الاسر البابلى وتهيأ الرأى العام اليهودى لاستقبال المسيح وكان توقعه يتجدد كلما نزلت باليهود البلايا والمحن . فراحت النبوءات تواصل سيرها وتحقق وجودها وقد اعطى السبى البابلى نشاطا نبويا بين ابناء اسرائيل فظهر فى الأسر حزقيال الذى اعلن ان يهوه سينجى اليهود وتنبأ بان سيقام فى القدس معبد جديد وبانها ستصير مدينة فاضلة حيث يقيم يهوه مع شعبه ابد الدهر فلما ظهر عيسى عليه السلام بين اليهود . اعلن اليهود انه المسيح المنتظر ولكن لما وجدوه يحارب اعتقادهم ومطامعهم الدنيوية رفضوه وحاكموه وقال عنه التلمود يسوع الناصرى موجود فى لجات الجحيم بين القار والنار وقد اتت به امه عن طريق الخطيئة ويتعللون بعدم قبولهم لرسالته بانه عليه السلام لا تتحقق فيه الشروط التى وردت على لسان الأنبياء السابقين عن المسيح المنتظر وزمانه فان النبى ايليا لم ينزل مرخصا له ولم يعد من السماء قبل مجيئه معلنا عن بعثته وهكذا تنكر اليهود للمسيح والواقع ان الحلم بالمسيح المنتظر لم يكف عن مداعبة خيال اليهود منذ السبى البابلى وحتى القرن العشرين .

يقول دانيال « كنت ارى فى رؤى الليل واذا مع سحب السماء مثل ابن انسان اتى وجاء الى القديم الايام فقربوه قدامه : فاعطى سلطانا ومجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والامم والالسنة سلطانه سلطان ابدى ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض » (دان ٧ : ١٣ : ١٤) .

ويستمر هذا الاصحاح فى تفسير احلام دانيال وهى نبوءات سياسية وعسكرية متوقعة الى آخر الزمان تنتهى بهلاك اعداء الرب وشعبه المختار واحد تلو الآخر حتى ياتى آخر الظالمين « ويتكلم بكلام ضد العلى ويبلى قديسى العلى ويظن انه يغير الأوقات والسنة ويسلمون ليده الى زمان وازمنة ونصف زمان . فيجلس الدين وينزعون عنه سلطانه ليفنوا ويبيدوا الى المملكة والمنتهى والسلطان وعظمة المملكة تحت السماء تعطى لشعب قديس العلى » (دان ٧ : ٢٥ : ٢٨) .

ومرت فترات طويلة دون ان يجىء المسيح الذى ينظره اليهود وانتهز بعض اليهود الفرصة فنادى بانه هو المسيح المنتظر ومن هؤلاء ظهر اربعة وعشرون مسيحا كاذبا . منهم يثوداس الذى ظهر عام ٤٤ م فاتبعه جمهور كبير من اليهود . ويذكر المؤرخ يوسيفوس مسيحا آخر من يهود مصر ذهب الى جبل الزيتون المشرف على اورشليم واخذ دعوته فآمن به نحو ثلاثين الفا . وقد قال لهم انه بارادته ستتهدم الأسوار الرومانية من مدينة القدس فيدخلها واتباعه فعلم بذلك حاكم المدينة فليكس (٥٠ — ٦٠ م) وانقض عليه بجيشه وهرب المسيح المنتظر . وفى حوالى سنة ١٢٠ م قام اليهودى الثائر بركوكبا باعلان الجهاد المقدس لطرد الرومان وغيرهم من فلسطين والاستيلاء عليها لتكون وطنا لليهود وادعى لاتباعه انه المسيح المنتظر . وظهر مسيح فى سوريا اسمه سيرينوس . وتكرر انبثاق ظاهرة المسيح المنتظر فى المجتمع اليهودى ابان الحروب الصليبية فظهر احدهم فى فرنسا وقتل عام ١٠٨٧ م وظهر آخر فى قرطبة عام ١١١٧ م وثالث فى فارس عام ١١٢٧ م وكان من اشهر من ادعوا شخصية المسيح المخلص هو داود الرائى من مواليد آبد باقليم كردستان عام ١١٣٥ م . وكان شبتاى زيفى المولود بازمير عام ١٦٢٦ م والذى مات فى البانيا عام ٧٦٥ م اخطر شخصية ادعت انها المسيح المنتظر واتباع هذا المسيح يسمون الدونمة الذين استمروا فى التخفى وراء واجهة اسلامية مع بقاءهم على الولاء لاصلهم اليهودى واعتقادهم ان شبتاى لم يمت وانه سيعود فى يوم ما لممارسة سلطته الزمنية والدينية مسيحا وملكا .

والخلاصة التى نصل اليها ان هؤلاء المئات من المحسوبين على النبوة لبثوا بين قبائل اسرائيل لا يصبر القوم على تكاليفهم المرهقة الا لمنفعة ينتظرونها منهم وهى الاعتماد عليهم فى الكشف عن الخبايا والانذار عن الكوارث المتوقعة . واهم ما كان يهمهم من هذه الكوارث ان يحذروا غضب يهوه لانهم جربوا انه اقدر على النقمة من سائر الارباب فالنبوة عند اليهود وحتى ظهور السيد المسيح لم تكن الا بضاعة مرادفة لصناعة

التنجيم أو لصناعة الفراسة المنذرة بالكوارث فقد كانوا على سبيل المثال يقصدون هؤلاء الأنبياء ليدلوهم على الماشية الضائعة كما حدث مع صموئيل الذى دل شاول بن قيس على ما شيته التى ضاعت « وأما الأتن الضالة لك منذ ثلاثة أيام فلا تضع قلبك عليها لأنها وجدت » (١ صم : ٩ : ٢٠) .

ولم يفهم القوم من النبوة غير معناها هذا لأنهم قد تعلموا من أحبارهم وكتبه أسفارهم أن أنبياءهم قد حلوا فى محل العرافين والسحرة الذين ينقلون أقوال الالهه فى غير بنى اسرائيل فهؤلاء جميعا لا يصدقون لأنهم ينقلون المعرفة من أرباب غير يهوه . وأما أنبياؤهم فانهم صادقون لأنهم ينقلون عن يهوه وهكذا أوتر فى أخلاد الشعب من أحباره وعلمائه الى عامه جهلائه أن الكشف على الغيب مرادف لمعنى النبوه وأن وقوع الخير هو امتحان الصدق الوحيد الذى يمتحن به الانبياء الصادقون فيما يتحدثون به عن الاله . وأن المقياس الوحيد الذى يحدد صدق أو كذب النبى هو اعلانه عن أحداث مستقبله فان تحققت هذه الأحداث كان صادقا . وان لم تتحقق كان كاذبا . وقد أشار الى هذا المعنى سفر التثنية « وان قلت فى قلبك كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصير فهو الكلام الذى لم يتكلم به بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه » .

(تث ١٨ : ٢١ ، ٢٢) .

والفرق بين أنبياء بنى اسرائيل وبين السحرة والعرافين فى الأمم الأخرى انما هو فرق بين اناس يحسنون الكشف واناس يخطئون فى هذه الصناعة لأنهم ينقلون عن آلهة كذبة لا يستحقون العبادة مثل يهوه . كما أن هناك فرق آخر بين الكهنة وهؤلاء الأنبياء فالأنبياء ظلوا بعيدين عن المعابد غير مرتبطين بتقاليده فكانوا الناصحين غير الرسميين للناس فى الشئون العامة والناعين عليهم الخطايا . ولم تكن أعمال الأنبياء ذات صلة بالهيكل أو القرابين ولم يكن أحد يعين الأنبياء . ولا كانوا يختارون من سبط محدد . ولم تكن هناك تقاليد يمرون بها ليصلوا الى النبوة . وهم فى كل هذا يخالفون الكهنة . فالكهنة كانوا أبناء لبنى أحد أبناء يعقوب . وللوصول الى الكهنوتية كان الواحد منهم يمر بتدريبات وتقاليد يعرف خلالها الطقوس والأسرار الدينية وكان يتكون من كبار الكهنة مجلس يبحث الشئون الكبرى التى تهم اليهود ويسمى بالمجمع الكهنوتى وسلطان هذا المجمع كان يمتد الى حيث يقيم اليهود فى كل البقاع . ولم يكن

للأنبياء مثل هذا السلطان . وكان لهذا المجلس الحق فى البحث فى كل الشئون المتعلقة بالدين وكان له أن يحكم بالاعدام على الهراطقة بشرط موافقة الحاكم . وطالما استخدم الكهنة هذا السلاح لبسط نفوذهم على اليهود . وبجانب ذلك كان للكهنة خدمة المعبد ولهم الحق وحدهم فى تفسير النصوص وتقديم القرابين على أيديهم ولم تكن تقبل توبة أو قرابين الا اذا باركها الكاهن فمفتاح السماء فى يده(٢) .

واليهود والنصارى لم يفهموا النبوة على أنها أساس الدين وأن كل ما جاء فى الدين من عبادات ومعاملات وارشادات وأخلاق انما اتى عن طريق النبوة . فالنبوة روح المجتمع الانسانى وعصب المجتمعات البشريه والركن المتين الذى يقوم على التعامل بين أفراد المجتمع تعاملا يجلب لهم السعادة ويشيع فيهم روح الاخوة فى الدين والانسانية فيكون تعاملا مبنيا على التسامح . وأن النبوه ضرورية للمجتمع البشرى لأن الانسان مسوق الى التدين بفطرته والتدين اذا أحلناه الى معناه الحقيقى وجدنا أنه الشعور بأن فوق هذا العالم المادى المحسوس عالما أرقى منه يصرفه ويتولى تدبيره وأن هناك قوة عليا فى هذا العالم وأنه هو مخلوق تلك القوة ومسخر لها . لا يملك لنفسه نفعا أو ضرا الا به وأن سعادته وشقائه فى يد تلك القوة التى لا يدركها عقله . والانبياء همالذين يتصلون له بتلك القوة ويخبرونه بها ويدلونه عليها ويعرفونه بصفاتها وأفعالها حتى يتوجه لها بالعبادة . ولكن النبوة عند اليهود والنصارى لا تعنى الايمان بشرع سواء أمر الموحى اليه بتبليغه أم لا . ولكنها تعنى عندهم زعامة سياسية دينية . وان كانت لا تسعى الى تسلم مقاليد الحكم رسميا . بل تبقى لتدبير مقاليد الحكم من وراء ستار . بينما الحاكم يجلس على عرشه . ويبايعه الشعب بأمر من هذا النبى . فتاريخ النبوة فى بنى اسرائيل يواكب التاريخ السياسى والاجتماعى لتلك المجموعة البشرية منذ مجاهل التاريخ الأولى الى بداية القرن الرابع قبل الميلاد عند المدققين من اليهود فى التراثم المنقول المروية والنصوص المقدسة والى ما بعد ذلك عند غير الملتزمين ممن يرون فى الكهنة والأحبار الذين تلو الأنبياء استمرار للوحى والنبوة فى هذا المجتمع اليهودى . بل ان الملتزمين انفسهم من طائفة الفريسيين يقولون بهذا الاستمرار فهم يسمون المشنا التوراة الشفوية مع انها ليست الا مجموعة من الاجتهادات والفتاوى والشرائع التى سنها أحبار من هؤلاء اليهود بعد انقضاء عصر النبوة . ويظل باب النبوة مفتوحا عند مؤرخى الفكر الاسرائيلى ليدخل منه انبياء انكرهم اليهود وكفروا بهم امثال يوحنا

المعمدان وعيسى عليه السلام . بل ان كثير من العلمانيين اليهود . ممن الهبت أرواحهم نيران الصهونية يبقون باب النبــوة مفتــوحا حتى القرن العشرين ليدخل منه تيودور هرتل ايضا .

وأما النصارى فيبقون باب النبوة مفتوحا ليدخل فيه بولس ثم البطاركة والقسس .

الفرق بين النبي والولي من حيث المعرفة :

يقرر الصوفية في الجانب الباطني من طريقتهم اصلا يكون منها بمثابة القطب من الرحى وذلك هو أن السالك الى الله يمر في طريقه اليه بمنازل ومقامات متفاوتة يعظم بعضها بعضا ويعلو بعضها على بعض حتى يصل الى مقام التعرف وهو مرتبة الوصول وعند ذلك يصبح بحق قطب الغوث وهو لا يكون الا بعد أن يبلغ المرء سن الأربعين مثله في ذلك مثل النبي ، اذ من المعلوم لدى المسلمين أن النبوة لا تأتي الا اذا بلغ سن الأربعين ، يدل على ذلك ما رواه ابن الصباغ في دوة الأسرار في مناقب ابي العباس المرسي ما نصه : «كم سنك يا ابا العباس قال ثلاثين سنة فقال بقيت عليك عشرة أعوام وترثالصديقية من بعدى »(1) .

ولكنى اعنى القطب لا يقال عنه نبى ولا يوحى اليه كالنبـــى

ولكنه أعنى القطب لا يقال عنه نبى ولا يوحى اليــه كالنبي وانما يسمى كما تعطيه هذه العبارة صديقا والفرق بين النبي والصديق أو قطب الغوث كما هو اصطلاح المتصوفة بوجه عام راجع فقط الى أن النبي ذو شرع يؤمر بتبليغه للناس اذ كان نبيا مرسلا ، واذا كان نبيا فقط فهو ذو شرع يكلفه الله به وحده من غير أن يأمره بتبليغه الى الناس وأما القطب فليست له شرعة خاصة وانما دينه وشريعته هو الدين الذى جاء به النبي محمد عليه السلام مثله في ذلك مثل بقية المسلمين في غير ما فرق من حيث الصيغة الدينية العامة وان القطب يمتاز عن بقية المؤمنين بأنه ذو بصيرة تنكشف لها جميع الحقائق وبها يدرك جميع الموجودات ويعلم ما كان منذ بدء الخليقة وما سوف يكون حتى يوم القيامة .

ومعرفة القطب الغوث تأتي نتيجة اختيار الله له من بين البشر حتى يصبح يرى بعيني قلبه ما لا يراه الناظر بعيني رأسه فهو ذو بصيرة نفاذة

تخترق الحجب وتقطع المسافات اذ اعنى القطب ياتيه المدد على حد تعبيرهم من ربه غيرى الأطيار فى جو السماء والأسماك وهى تسبح فى الماء ثم هو اذ سال ربه سمع النداء واحيانا يطلع على الملائكة فينعم برؤيتهم ويحصل له من ذلك علوم لدنية اشبه ما تكون بحالات الوحى ، غير أن الوحى يترجم على لسان النبى فى شكل سور وآيات أو اسفار واصطلاحات على ما هو معروف فى القرآن الذى نزل على محمد ﷺ او التوراة التى جاء بها موسى عليه السلام . اما القطب فانه يصوغ ذلك احيانا فى اقوال وأخرى فى اشعار . والصوفية متفقون بأن المعرفة للنبى تاتى عن طريق الوحى والالهام وتأتى للولى عن طريق الالهام والفراسة والحديث والرؤيا وصاحب الالهم والفراسة يتكلم بنور الله والحديث يناله أولياء الجذب والرؤية ينالها أولياء الانابة والهداية .

يقول الغزالى « ثم الواقع فى القلب بغير حيلة وتعلم واجتهاد فينقسم الى ما لا يدرى العبد انه كيف حصل ومن اين حصل والى ما يطلع معه على السبب الذى منه استفاد ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب والأول يسمى الهاما ونفثا فى الروع . والثانى يسمى وحيا وتختص به الانبياء . والأول يختص به الأولياء والأصفياء » .

والترمذى يقول فى كتابه ختم الأولياء صفحة ٣٥٧ :

« فالمحدث له الحديث والفراسة والالهام والصديقية والنبى له ذلك كله والتنبؤ والرسول له ذلك والرسالة ومن دونهم من الأولياء لهم الفراسة والالهام الصديقية » .

ولم « يفارق الوحى الالهام فى نفس العلم ولا فى محله ولا فى سببه ولكن يفارقه فى مشاهدة الملك المفيد للعلم . ولكن هناك فرق بين الوحى والالهام ذلك بأن العلم الذى يحصل القلب بغير تعلم واستدلال ينقسم الى ما لا يدرى العبد . انه كيف حصل واين حصل وهو الالهام والى ما يطلع معه على السبب الذى استفاد منه ذلك العلم وهو مشاهدة الملك الملقى فى القلب وهو الوحى وتختص به الأنبياء ، والأول الهاما ونفثا فى الروع وتختص به الأولياء والأصفياء والوحى يخالف الالهام بظهور الملك للنبى فيتلقى منه الشرائع ويشاهده ويسمع خطابه والولى وأن سمع صوتا فهو لا يرى صاحبه . وهناك فرق أيضا بين الكلام الذى يأتى به الوحى وبين الحديث الذى يأتى به الحق لأن الأول كلام والثانى يحمله الوحى من الله

مباشرة لا باعتبار صفة من صفات الله مؤيدا بروح من الله فيقضى الوحى ويختم بالروح فلا يكون عرضة للتغيير او الزيادة والنقص او عرضة للشك. ولهذا يجب تصديقه والايمان به ومن رده فقد رد كلام الله تعالى مباشرة ورد وحيه ومن يرد كلام الله فقد كفر ، أما الحديث فهو ما ظهر من علمه فوصل الى النفس والقلب كالسر فلم يبلغ أن يكون كلاما واضحا صريحا وهو كذلك يرد على لسان الحق من محبة الله لعبده فلا يتلقاه الحق من الله مباشرة بل باعتباره صفة من صفاته العليا فيمضى الى قلبه مؤيدا بالسكينة دون ان يختم عليه بالروح فمن رده لم يرد كلام الله مباشرة ولم يرد وحيه ولا روحه ولم يرد شيئا مختوما عليه فلا يكفر لكنه يخيب ويخذل لأنه رد على الحق ما جاءت به محبة الله من هذا الحديث .

وهناك فرق آخر بين الوحى والالهام فالوحى ينقطع اما الالهام فلا ينقطع « فالوحى اذا انقطع وباب الرسالة اذا انسد استغنى الناس عن الرسل واظهار الدعوة بعد تصحيح الحجة وتكميل الدين كما قال تعالى (اليوم اكملت لكم دينكم) وليس من الحكمة اظهار زيادة الفائدة من غير حاجة فاما باب الالهام فلا ينسد ومدد نور النفس الكلية لا ينقطع لدوام ضرورة النفوس وحاجتها الى تاكيد وتجديد تذكير » .

« كما ان النبى يشاهد فى اليقظة ما يشاهده الناس فى الرؤيا فى المنام فاذا قال عليه الصلاة والسلام رأيت عبدالرحمن بن عوف يدخل الجنة فلا تظنن انعلم يشاهده بالبصر كذلك بل رآه فى يقظته كما يراه النائم فى نومه وان كان عبدالرحمن . مثلا نائما فى بيته بشخصه فان النوم انما اثر فى امثال هذه المشاهدات لقهره سلطان الحواس عن النور الباطن الالهى فان الحواس شاغلة له وجاذبة اياه الى عالم الحس وصارفة وجهه عن عالم الغيب والملكوت وبعض الأنوار النبوية قد يستعلى ويستولى بحيث لا تستجره الحواس الى عالمها ولا تشغله فيشاهد فى اليقظة ما يشاهده غيره فى المنام » .

ويتفق اهل السنة وجمهور الصوفية على تفضيل النبى على الولى من حيث المعرفة وعلى ان الولاية امتداد النبوة وتاييد لها لأن النبوة انقطعت بموت النبى والولاية لا تقطع فالأولياء هم حلفاء النبى وورثته الروحيون الذين يحملون الشعلة المقدسة من بعده وفى هذا يقول الهجويرى : وقد اراد الله ان يظل برهان النبوة قائما الى يومنا هذا فجعل الأولياء وسيلة لاظهار هذا البرهان لكى يستقر الحق به وتظل نبوة النبى

ظاهرة ويحاول الهجويري ان يثبت افضلية الانبياء على الأولياء بدليلين احدهما عقلي نظري والآخر صوفي اما العقلي فهو ان الأولياء اتباع الأنبياء والتابع ادنى منزلة من المتبوع فلا يمكن ان يكون افضل منه . واما الدليل الصوفي فهو ان الأولياء على سفر الى الله اما الانبياء فواصلون الى الله منذ البداية وصلوا اليه ثم عادوا برسـالاتهم لدعـوة الناس وتعليمهم والواصل الى نهاية الطريق افضل من السالك الذى لا يزال يسـير حتى نهايتـه .

وانني اجد الكثير من اقوال الصوفية ما ينص صراحة على تفضيل النبي على الولي . يقول الشاذلي في ذلك فيما حكاه الشيخ ابو العباس : « كنت في بحر عيذاب وكنا في شدة من الريح الاذيب وكان المركب قد انفتح فقال الشيخ رضى الله عنه . رأيت السماء قد انفتح ونزل منها ملكـان احدهما يقول موسى اعلم من الخضر والآخر يقول الخضر اعلم من موسى واذا ملك ثالث ينزل ويقول الله ما علم الخضر من موسى الا كعلم الهدهد من سليمان حيث قال . . (اى الهدهد لسليمان) احط بما لم تحط به » .

وفي هذا اشارة صريحة الى ان النبي افضل واعلم من الولي لأنه لا يصح ان يكون الهدهد الذي ليس انسان افضل من سليمان الكامل . وكان الشاذلي يقول « قال النبي ﷺ العلماء ورثة الانبياء عليهم الصلاة والسلام اى يقومون مقامهم على سبيل العلم والحكمة لا على سبيل التحقيق بالمقام والحال فان مقامات الأنبياء عليهم الصـلاة والسـلام قد جلت ان يلمح حقائقها غيرهم » ونلاحظ من قول الشاذلي ان الولي تابع للنبي والتابـع ادنى منزلة من المتبوع .

ويقول الشيخ ابو العباس « الأنبيـاء يطالعـون حقائـق الأشياء والأولياء يطالعون مثلها » .

وكان ابن عطاء الله السكندري يقول « حاشا ان يشترك النبي والولي في مقام » وكان يقول ايضا « ان الانوار الظاهرة من اولياء الله انما هي اشراق انوار النبوة عليهم الصلاة والسلام » .

وكان المرسي يقول في تفسير قول ابي يزيد : خضت بحرا وقفت الأنبياء بسـاحله « انما يشكو ابو يزيد بهـذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام ومراده ان الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا

من الجانب الآخر على ساحل الغرق يدعون الخلق الى الخوض أى فلو كنت كاملا لوقفت حيث وقفوا » .

ومن هنا نلاحظ أن جمهور الصوفية اتفقوا على تفضيل النبى على الولى ، فمثلا الغزالى والترمذى يفضلون النبى على الولى .

يقول الغزالى « وأقصى الرتب رتبـــة النبى الذى تنكشـــف له كل الحقائق أو اكثرها من غير اكتساب تكلف بل بكشف الهى فى أسرع وقت .

يقول الترمذى « ولمـــا كان طريق الجباية مشتركا بين النبى وبين الولى المجتبى غير أن الولى لا يبلغ فيه درجة النبى فاننا نستطيع ان ندرك ان النبى ينال ما ناله الولى المجتبى فى درجة أرقى ورتبة أعلى وأن الولى المجتبى قد ينال بعض ما يناله النبى ولكن فى درجة اقل ورتبة ادنى ليست هى درجة النبوة ولا رتبتها » .

ولعل مسالة تفضيل النبى على الولى عند الصوفية أصبحت واضحة ومحددة بحيث يمكن القول بكل ثقة أن هنـــاك حدودا فارقـــة بين النبى والولى وان النبى له منزلته اللائقة به فوق منزلة الولى وانه لايفضل أى ولى مهما تكن مكانته ورتبته فى الولاية على أى نبى مهما تكن مكانته ومنزلته من النبوة وبذلك وضعت الحدود الفاصلة التى تحفظ لكل ذى مقام مقامه دون خلط أو التباس أما من حيث تدرج المقامات الروحية فان مقامات الأولياء قد تصـــل الى ان تكون دون مقام الأنبيـــاء مباشرة ولكنها لا تلتبس به ولقد عرفنا أن طريق الأنبياء غير طريق عامة الأولياء لأن طريق الأنبيـــاء هو طريق الجباية بمشيئته تعالى اما طريق الأولياء التى يسلكونها فهى طريق الانابة ولكن هناك أولياء الجبـــاية وهم بين طائفة أوليـــاء الانابة وطائفة الأنبياء ولكنهم لم يبلغوا مرتبة الأنبياء .

الولاية وكرامات الأولياء والفرق بين الكرامة والمعجزة :

أساس نظرية الولاية هو اختصاص الله سبحانه وتعالى لبعض عباده وتفضيله بعضهم على بعض بما شاء من فضله فعل أى أساس تقوم هذه المفاضلة هل هو محض اختيار من الله لا دخل لارادة العبد وعمله فيه أم نتيجة جهد العبد فقط أمنتيجة اختيار الله نتيجة عمل العبد ؟

وقدماء الصوفية قد تعرضوا لذلك فالفضيل ابن عياض ومعـــروف الكرخى يشيران الى انها فضل ومنة من الله وان لم يكن كلامهم لا يخلوا من

اشارة الى الجهد والعمل بينما يشير ابراهيم بن ادهم الى الناحيتين معا ويرى انها قد تكون بالمنة كما حدث لهذ نفسه هتف به الهــاتف وهو فى رحلة الصيد وقد تكون بالجهد كما روى القشيرى فاذا انتقلنـــا الى القرن الثالث وجدنا ذو النون المصرى وابا يزيد البسـطامى وابا القاسم الجنيد يشيرون الى الطريقتين معا بمعنى أن هناك اولياء نالوا ولايتهم بمحض المنة الالهية وآخرين ادركوهـــا بالجهد والعمل . ويقســمون الولاية الى قسمين أو يقسمون الأولياء الى قسمين :

الأول منهم هم أولياء حق الله أو الصادقون ويقول عنهم الترمذى فى علم الأولياء « ان كلمة لا اله الا الله لازمة للخلق الاعتقاد بها قلبا والاعتراف بها نطقا والوفاء بها فعلا فاما الاعتقاد بها قلبا فان يعتقد نفى القــدرة عن جميع من تولهت اليه القلوب فى المضار والمنافع سواه واما الاعتراف بها نطقا فان يقول لا اله الا الله واما الوفاء بها فعلا فان يكون له من الثقة فى باب النوائب ومن التوكل فى باب الرزق ومن التفويض فى باب الحوائج ومن الصبر فى باب الشهوات ومن القناعة فى باب المقالات ومن الانقياد فى باب العبودات والتسليم فى باب المتشابهات وما يحفظ الجوارح السبع التى اوتمن العبد عليهن ووكل العبد برعايتهن وهن اللسان والسمع والبصر واليد والرجل والبطن والفرج من أن يعصى الله بجارحة منهاب سبب شىء من هذه الأبواب فهذا ما لزم الخلق فى باب العبودية فليس لهم من ذلك محيل ولا لهم منه بد فان اقامها خرج من الظلم وهو من المطيعين لديه ثم لأهل الدرجات فيما وراء ذلك سعى الى الله بالقلوب « ومن هنا يبــدأ الطريق الذى يسلكه أهل الولاية للوصول الى ربهم كل على قدر ما يستنير قلبه من انوار المعرفة وعلى قدر ما يجاهد لتحرير قلبه من اسر النفس وعبوديته لها ليصبح خالص العبودية لربه اما العمل فى حدود الشرع فيخرج صاحبه من الظلم ويهيئه للسعى بقلبه والارتقاء فى درجات الــولاية فولى حق الله بعد ان تاب وعزم على الوفاء بتوبته قام بحراسة جوارحه فهــو يؤدى الفرائض ويحفظ الحدود ويقتصر على المباحثات فاذا بلغ المحظور اعرض ونأى حتى استقام واستقامت له جوارحه ثم نظر الى باطنه فوجد نفسه محشوة بشهوات هذه الجوارح فلم يؤمن أن يغفــل عن حراســة جوارحه ساعة أن تستبد به وترمى به فى أودية المهالك من اجل ذلك اصبح منكمشا عن الخلق يهرب من كل امر عجزا منه وخوفا من جوارحه ومن هذه النفس الشهوانية أن تخدعه فيزل فهو قائم لذلك فى عناء المجاهدة لا يهدأ ولا يســتريح حتى اذا طال به الأمر وقارن بين ما يجــده فى نفسه وبين ما يصف أهل اليقين من أمور قلوبهم فلم يجد لديه شيئا منها جعل يفكر

حتى يستطيع أن يستريح من هـذه الحراسة ليفكر فى منن الله وصنائعـه ويطهر قلبه من هذه الأدناس فيرفض كل شهوة محظورها ومباحها وبذلك يستريح من حراسة نفسه .

يقول الحكيم فى ختم الأنبياء « فقصد ليطهر الباطن بعد ما اســتقام له تطهير الظاهر فعزم على رفض كل شــهوة فى نفسه لهذه الجــوارح السبع فيما أطلق أو حظر عليه وقال انما هى شهوة واحدة تطلق لى فى مكان وتحظر فى مكان فلا خلاص منها حتى أميتهــا من نفسى و حسب أن رفضها اماتتها فعلم الله صدق الرفض من عبده وماذا يريده » ومن صدق الله فى عزمه على رفض شهواته عبودية لله وأداء حق الله دون النظر الى حظوظ نفسه فى هذا الرفض فتح له الطريق اليه وأشرقت أنوار العطاء فى صدره ووجد العون على تحقيق عزمه وكان صدقه هذا أول خطوة فى طريق الولاية لحق الله تعالى .

أما القسم الثانى من أولياء الانابة والهداية فهم الصديقون وذلك لأنه بعد ان يستفرغ الصادق مجهوده من الصدق فى سيره ويجد نفسه لا تزال حية تفرح بأحوالها عند الخلق وتشعر فى أعماقها بالرغبة الكامنة فى تبوء المنزلة عندهم ركونا الى الحياة وتنسما لروحها يعلم علم اليقين أنه لن يبلغ بصدقه منتهاه الا بمعونة خالصة من الله وانه ان ترك وحده وخلى وجهــده لم يقــدر على ذلك وعندئذ يقف موقف المضطر قد انقطــع فى المفازة لا زاد ولا راحلة ولم يعد له ما يعتمد عليه من ذات نفســه فاذا اتجه الى الله يدعوه فى هذه الحالة كان اتجاهه ودعاؤه خالصا له وكان حريا أن تدركه الرحمة كما تدرك المضطر فى مفازة الأرض فتحل له الميتة فهذا العبد خلصت دعوته حين صار مضطرا ولم يبق له معتمد يعتمد عليه فأجيبت له دعوته مصداقا لقوله تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعــاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض) (النمل : ٦٢) فيطير به من محل الصادقين فى طرفة عين الى محل الأحرار الكرام الى محل الصديقين عند البيت المعمور حيث يجد روح القربة ورتبت له هناك مرتبة على شريطة لزوم المرتبة وعدم الاشتغال الا بما يؤذن له فيه من الأعمال ويظل كذلــك تحت حراسة الحق وتأييده فان وفى وثبت فى مرتبته ولم يبغ عملا فى محل القربة أصبح أهلا لأن ينال منه أخرى جديدة فينتقل من محل القربة الى ملك الجبروت الى آخر هذه الأملاك كلما كان أوفر حظا منها كلما كان أوفر حظا من الولاية .

أما القسم الثانى من الأولياء وهم أهل المشيئة والجباية أو المجذوبون فهناك فرق بينهم وبين أهل الصدق والجهد فان أهل الصدق والجهد خرجت لهم المنة من باب الرحمة وان المنة خرجت للمقربون والمجذوبون من باب المشيئة ومفهوم الرحمة أن تكون بالنظر لمحتاج يفتقر بذل أقصى جهده حتى كل وعى وأصبح فى حاجة الى من يعيفه فهى فى الرتبة الثانية من الوقوع أما المشيئة فغير مسبوقة بشىء من ذلك وانما هى لله وحده غير معلقة بشرط فهى فى الرتبة الأولى من الوقوع فالرحمة تتجه لمن جاء قاصدا مريدا باسطا يد التضرع والرجاء أما المشيئة فتتجه نحو مقصود مراد تجذبه وتستميله وتأخذه عما هو فيه . ولا شك أن المعاملة فى كل من المقامين تختلف عن المعاملة فى الآخر فليس من يعامل بطريق الرحمة وهو طالب كمن يعامل بطريق المشيئة وهو مطلوب فالذى يعطى بطريق الرحمة وهو طالب يعطى على قدر حاجته أما الذى يعطى بطريق المشيئة وهو مطلوب فلا حساب على عطاياه ولا تحديد لهداياه وبدء شأن المجذوب حين تخرج له المنة من المشيئة أن يجذب الى مرتبة القربة ليعتق هناك من رق القربة النفس ويصيرا حرا بغير تبعية ثم ينقل من محل القربة الى ملك الجبروت الى آخر هذه الأملاك وهذه الأملاك التى يسير فيها المنيب ويؤخذ اليها المجتبى هى من أسماء الله الحسنى .

ويجب أن نلاحظ انه لا يوجد فرق فى الدرجات والمراتب فالطريق المفتوح للمجتبى يكاد يكون مفتوحا كذلك للمجتهد الا أن هناك فارقا جوهريا بين قطع كل منهما لهذا الطريق فالمجتهد كما عرفنا نقل بعد غاية الجهد الى محل القربة وحيل بينه وبين نفسه على شريطة لزوم المرتبة فلا يصدر الى عمل بغير اذن فان اذن له وكل الحق حارسا له ومؤيدا والا صدر على غرور نفسه فلم يستطع العودة الى هذه المرتبة أما المجتبى فقد نقل الى محل القربة عندما حان وقت كشف الفتح دون سابق جهد أو عناء وحيل بين نفسه وبين قلبه دون شرط عليه بلزوم الرتبة فلا تبعة عليه واذنه فى الأمور مفتوح لأن المنة خرجت له من المشيئة وكلما كان أوفر حظا من المشيئة كلما كان أوفر حظا من الاذن حتى يكون اذنه فى الأمور دارا لا ينقطع فان صدر الى أى عمل كان فى حراسة الحق دون أن يكون عليه فى ذلك تبعة أو مسئولية .

ويحتاج كل من ولى حق الله والمجذوب الى مدة تتم خلالها عملية التصفية النفسية من تأديب وتهذيب وتنقية وترقية حتى يصلح لحمل أمانة الله تعالى ولكن شتان بين مدة فى الجذب وبين مدة فى الصدق فهذا يحتاج

الى مدة في جذبه وذلك يحتاج الى مدة في صحبته الا أن هذا تصفيته لنفسه بجهده وتصفية المجذوب يتولاه الله بانواره فانظر كيف صنع الله بعبده وصنع العبد بنفسه .

وجمهور الصوفية يطلقون اسم الولي على الصوفي الذي وصل الى مقام القرب من الله .

يقول نيكولسون « يطلقون اسم الولي على الرجل الذي يصل الى مقام الفناء عن ذاته وارادته وبقى بالارادة الالهية ولكن ليس معنى هذا أن جميع الصوفية أولياء فان الأولياء ليسوا في الحقيقة الا طائفة قليلة من خواص أهل الله وصلوا الى أعلى مراتب أحوال الصوفية وهم من حيث صلتهم بالله بمثابة المرايا التي تنعكس عليها صورة الذات الالهية أو المجالي التي يتجلى الله فيها للخلق . يقول جلال الدين : ان المسجد الذي بنى في قلوب أولياء الله معبد للجميع لأن الله فيه » .

ولقد اثنى الله تعالى كثيرا على عباده الصالحين وسماهم الأولياء أو حزب الله أو عباد الرحمن أو عباد الله يقول جلا جلاله « **الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم** » . (يونس : ٦٢ — ٦٣ — ٦٤) .

ولقد وردت كلمة ولي أولياء في عدد غير قليل من الآيات القرآنية فوصف الله نفسه بانه « **الله ولي الذين آمنوا** » (البقرة : ٢٥٧ « **والله ولي المؤمنين** » (آل عمران : ٦٨) « **وكفى بالله وليا** » (النساء : ٤٥) « **فالله هو الولي وهو يحيي الموتى** » (الشورى : ٩) وانه « **وهو الولي الحميد** » (الشورى : ٢٨) .

والولي كما يقولون : « مصان في اربعة مواطن : في الخواطر — والوساوس في الصلاة — ووقت الدعاء — واللجوء الى الله — والنجاة الى الله وقت نزول الشدائد وعند تفريجها . فهذه المواطن التي لا تخطر بقلوبهم ولا يتعلق فيها شيء سوى بالله عز وجل » .

ومن صفات الولي اكرام الله له في مظاهر شتى اخصها الكرامات والكرامات كما يقول نيكولسون « الكرامات امدادات الهية لم يطلبوها (أي الأولياء) ولكن منحها الله اياهم لما لهم من المنزلة الرفيعة في الولاية والاخلاص في الايمان » .

وتنقسم الكرامة الى نوعين : حسية مثل المشى على الماء وطى المسافات واظهار طعام فى اوان فاتة الى غير ذلك من الأفعال الناقضة للعادة .

وهناك كرامات هى عند الله افضـــل من ذلك واجـــل وهى الكرامة المعنوية كالمعرفة بالله والخشية ودوام المراقبة والمسارعة لامتثال أمر الله وصدق التوكل الى غير ذلك « وكرامة الصديقين خمسة أولها دوام الذكر والطاعات بشرط الاستقامة ــ والثانية الزهد فى الدنيا بايثـــار القلة ــ والثالثة تجديد اليقين مع المعارضات ــ والرابعة وجود الوحشة مع اهل الغفلة والانس مع اهل الحضرة ــ والخامسة على الابدان من طى الأرض والمشى على الماء وغير ذلك مما يجرى تحت حكم العادة ولهذا الفصـــل اوقات واشخاص واماكن فمن طلبها فى غير وقتها قل ما يعثر عليها وعلى الجملة لا يعطاها من طلبها ولا من تحدثه نفسه بها واستعمل نفسه فى طلبها وانما يعطاها عبد لا يدرى نفسه ولا عمله وهو مشغول بحجاب الله ناظر لفضل الله آيس فى نفسه وعمله وقد تظهر على من استقام فى ظاهره وان كانت هبات النفس فى باطنه » .

وظهور الكرمة على يد الولى مقرونة بالطاعة والعرفان بلا دعوة نبوة وتكون للدلالة على صدق هذا الولى وفضله وهى جائزة وواقعة عند اهل السنة ولو بقصد الولى على الأصح وان كان الغالب خـــلافه ومن جنس المعجزات على الصواب لشمول القدرة الإلهية وذلك لأن وجود الممكنات مستند الى قدرته تعالى الشاملة لكلها فلا يمتنع شىء منها على قدرتـــه ولا ريب أن الكرامة امر ممكن اذ لا يلزم من فرض وقوعها محال لذاته فهى جائزة بل واقعة حسبما نطق بها النص القرآنى والحديث النبـــوى . اما القرآن فقصة اهل الكهف حيث اقاموا فيه ثلاثمائة سنة وازيد نياما احيـــاء بلا ماء ولا غذاء وليسوا بانبياء باجماع الفرق ، وقصة مريم حيث حملت بلا ذكر ووجد الرزق عندها بلا سبب وتساقط عليها الرطب من شـــجرة يابسة بلا موجب . وقصة آصف حيث أحضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة طرفة عين (*)

واما السنة فحديث جريج الراهب يقول ﷺ : لم يتكلم فى المهد الا ثلاثة : عيسى ابن مريم وصبى فى زمن جريج وصبى آخر ، فاما عيسى فقد عرفتموه واما جريج فكان رجلا عابدا فى بنى اسرائيل وكانت له أم فكان يوما يصلى اذ اشتاقت اليه امه فقالت يا جريج فقال يا رب الصلاة خير ام آتيها ثم اصلى فدعته فقال مثل ذلك ثم صلى فاشتد على امه فقالت

اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات وكانت زانية فى بنى اسرائيل فقالت لهم انا أفتن جريجا حتى يزنى فأتته فلم تقدر على شىء وكان راعى يأوى بالليل الى أصل صومعته فلما أعياها راودت الراعى على نفسها فأتاها فولدت ثم قالت ولدى هذا من جريج فأتاه بنو اسرائيل وكسروا صومعته وشتموه فصلى ودعا ثم نخس الغلام وقال يا غلام من أبوك فقال الراعى فندموا على ما كان منهم واعتذروا وقالوا نبنى صومعتك من ذهب أو قال من فضة فأبى عليهم وبناها كما كانت .

وأما الصبى الآخر فان امرأة كان معها صبى ترضعه اذ مر بها شاب جميل الوجه ذو شارة فقالت اللهم اجعل ابنى مثل هذا فقال الصبى اللهم لا تجعلنى مثله ثم مرت بها أيضا امرأة ذكروا انها سرقت وزنت وعوقبت فقالت اللهم لا تجعل ابنى مثل هذا فقال اللهم اجعلنى مثلها فقالت له أمه لما ذلك فقال ان الشاب جبار من الجبابرة وان هذه المرأة قيل انها زنت ولم تزن وقيل سرقت ولم تسرق وهى تقول حسبى الله .

والكرامة والمعجزة أمور لا تخرج عن قبضة الله ومحض ارادته وفضل تدبيره ولذا يقول ابن عطاء الله « سوابق الهم لا تخرق أسوار الأقدار » ومعناه ان الكرامات لا تتعارض مع مواقع القدر لأن لها الأخرى قدرها وان جميع ما يقع من الأفعال عن طريق العادة أو عن طريق خرقها مردودة جميعا الى قضاء الله وقدرته فلذلك يتعين علينا اعتقاد كرامات الأولياء فقد أقرها الشرع ونزل فيها قرآن ولكن على طريق الاجمال من غير تعيين .

اذن الكرامات قد قام عليها الدليل القاطع بالكتاب والسنة والاجماع وبما ان مرجع الكرامة الى قدرة الله تعالى وليس الى قدرة الولى فلا عجب فى ذلك ولا غرابة .

وللناس فى كيفية وقوع المعجزة ودلالتها على تصديق الأنبياء والفرق بينها وبين الكرامة خلاف ، يقول ابن خلدون : فالمتكلمون بناء على القول بالفاعل المجهول يقولون بأن المعجزة واقعة بقدرة الله لا بفعل النبى وان كانت افعال العباد عند المعتزلة صادرة عنهم الا أن المعجزة لا تكون من جنس افعالهم وليس للنبى عند سائر المتكلمين الا التحدى بها باذن الله وهو أن يستدل بها النبى ﷺ على صدقه فى دعواه فاذا وقعت تنزلت منزلة القول الصريح من الله بأنه صادق وتكون دلالتها حينئذ على الصدق قطعية والتحدى هو الفارق بينها وبين الكرامة اذ لا حاجة فى الكرامة الى التصديق

فلا وجود للتحدى الا ان وجد اتفاقا وان قع التحدى فى الكرامة عند من يجيزها وكانت له دلالة فانما على الولاية وهى غير النبوة واما الحكماء فالخارق عندهم من فعل النبى وان النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية منها صدور هذا الخوارق بقدرته وطاعة العناصر له فى التكوين والخارق عندهم يقع للنبى سواء كان للتحدى أو لم يكن ، وهو شاهد بصدقه من حيث دلالته على تصرف النبى فى الأكوان الذى هو من خواص النفس النبوية لا بانه منزلة القول الصريح بالتصديق ، فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هى عند المتكلمين ولا يكون التحدى جزءا من المعجزة ولم يصبح فارقا لها عن الكرامة الا ان خوارق النبى مخصوصة كالصعود الى السماء والنفوذ فى الأجسام الكثيفة واحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران فى الهواء وخوارق الولى دون ذلك كتكثير القليل والحديث عن بعض المستقبل وامثاله ويأتى النبى بخوارق الولى ولا يقدر الولى عن الاتيان بخوارق الانبياء .

الفصل الثاني

السمعيات

تعريف السمعيات :

السمعيات هى أمور لا تأخذ الا بالسماع من الرسول صلى الله عليه وسلم وهى أمور لا يستطيع العقل ادراكها وطريق ثبوتها هو القرآن والسنة .

وأهم ما تشتمل عليه السمعيات القضايا التالية :

الموت — الروح — البعث والايمان باليوم الآخر .

وبالنسبة للموت فهو حقيقة لا محل للخلاف فيها ولكن الخلاف فى المعنى فبعض العلماء يرى أن الموت عدمى والبعض الآخر يراه صفة وجودية تضاد الحياة .

أما الروح فهذه المسالة شغلت الفكر الانسانى منذ طفولته ولا شك أن قضية الروح حيرت العقل البشرى واختلف الباحثون المسلمون فى جواز البحث عن حقيقة الروح من عدمه فبعضهم يرى الامساك عن الخوض فى حقيقتها فهو مكروه والبعض يرى أنه حرم وذلك لأن القرآن الكريم لم يتناول حقيقتها ولكن عدد آثارها وذكر مظاهره .

والفريق الآخر يرى جواز البحث عن حقيقة الروح ودليلهم فى ذلك أن القرآن الكريم حث على التفكير فى مخلوقات الله ((**وفى الأرض آيات للمؤمنين وفى انفسكم**)) (الذاريات ٢٠ — ٢١) .

البعث :

ويشمل الايمان باليوم الآخر .

والنفخ فى الصور .

والعقاب والصواب .

١ ــ الايمان باليوم الآخر : ــ

الايمان بالله تعالى يحقق المعرفة بالمصدر الأول الذى صدر عنه الكون . والايمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصدر الذى ينتهى اليه هذا الوجود ، وعلى ضوء المعرفة بالبداية والنهاية يستطيع الانسان أن يتخذ من الوسائل ما يصل بها الى الهدف ويبلغ الغاية .

لليوم الآخر أسماء كثيرة ورد ذكرها فى القرآن الكريم **فمن ذلك :**

(أ) **يوم الحساب :** لأن الناس يحاسبون فيه على ما عملوا فى دنياهم .

(ب) **يوم الفتح :** ويحكم الله تعالى فيه عباده بالحق .

(جـ) **يوم الدين :** يعنى يوم الجزاء .

(د) **يوم الحسرة :** لأن الكفار فيه يحسرون على ما فاتهم من الايمان بالله .

(هـ) **يوم الخلود :** لخلود أهل الجنة فى نعيمها . وأهل النار فى جحيمها .

ومن الألفاظ التي عبر عنها القرآن عن اليوم الآخر : ــ

القيامة ــ الطامة ــ **الواقعة** ــ الآزفة .

هذا ولا يعلم أحد من الخلائق باليوم المحدد لقيام الساعة وانما العلم عند الله ولكن أشراطها معلومة التى ذكرها الرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ ــ النفخ فى الصور : ــ

ورد فى الصور صراحة فى كتاب الله العزيز فى عشر آيات كما أحصيتها من المصحف العثمانى واليك بيانها :

١ ــ قال الله تعالى : « **وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير** » .

(من سورة الأنعام)

٢ ـ قال الله تعالى : « **وتركنا بعضهم يومئذ يمـوج فى بعض ونفـخ فى الصور فجمعناهم جمعا** » .

(من سورة الكهف)

٣ ـ قال الله تعالى : « **يوم ينفـخ فى الصـور ونحشر المجرمين يومـئذ زرقا** » .

(من سورة طه)

٤ ـ قال الله تعالى : « **فاذا نفخ فى الصـور فلا انسـاب بينهم يومئـذ ولا يتساءلون** » .

(من سورة المؤمنون)

٥ ـ قال الله تعالى : « **ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله وكل اتوه داخرين** » .

(من سورة النمل)

٦ ـ قال الله تعالى : « **ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث الى ربهـم ينسـلون** » .

(من سورة يس)

٧ ـ قال الله تعالى « **ونفخ فى الصور فصـعق من فى السـموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم ينظرون** » .

(من سورة الزمر)

٨ ـ قال الله تعالى : « **ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد** » .

(من سورة ق)

٩ ـ قال الله تعالى « **فاذا نفخ فى الصور نفخـة واحـدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة** » .

(من سورة الحاقة)

١٠ ـ قال الله تعالى : « **يوم ينفخ فى الصور فتاتون افواجا** » .

(من سورة النبأ)

كما ورد فى السنة من ذلك ما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف انعم (أى أفرح وأسر) وصاحب الصور قد التقم الصور ينتظر متى يؤمر أن ينفخ ؟ قالوا : وماذا نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل) أخرجه احمد والترمذى وابن حبان عن أبى سعيد . وأخرجه احمد والحاكم أيضا عن بن عباس . وأخرجه غيرهم عن زيد بن أرقم .

والصور (بضم الصاد وسكون الواو) هو : قرن عظيم من نور كهيئة البوق فيه ثقوب كثيرة بعدد أرواح الخلائق كلها ، وقيـــل فى وصـــفه غير هذا . وقيل أن النفخ فى الصور تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش اذا نفخ فى البوق ، ولكن ورود الصور فى الأحاديث مع ذكر بعض أوصافه يبعد هذا القول وان النفخ والصور حقيقتان لا يراد بهما المجاز ، ونحن نؤمن بالنفخ فى الصور ونفوض فى الصور ونفوض الأمر لله وحده عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير .

والنافخ فيه اسرافيل ، ويكون جبريل عن يمينه وميكائيل عن يســـاره والنفخ فى الصور مرتان لا ثلاث على الصحيح ، النفخة الأولى وتسمى نفخة الصعق والفناء ، وبها يموت من بقى من الخلق على وجه الأرض والسماء ، ويغشى على من كان ميتا من قبل لكنه حى فى قبره كالأنبياء والشهداء فيغشى عليهم بالنفخة الأولى حتى على نبينا صلى الله عليه وسلم ويبقى رؤساء الملائكة الأربعة وهم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل ، وقيل معهم حملة العرش الثمانية أحياء لأنهم جميعا من المستثنى فى قـــوله تعالى : ((**ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات والأرض الا من شـــاء الله**)).

وبعد هذه النفخة يموت هؤلاء المذكورون وآخرهم موتا سيدنا عزرائيل على الصحيح . ويقبض روح نفسه ، وقيل القابض له هو الله عز وجل : ثم يمكث الخلائق على هذه الحالة أربعين سنة وهى المدة التى تكون بين نفخة الصعق ونفخة البعث والأحياء ، وقبل انتهاء تلك المدة يرسل الله مطرا غزيرا خاثرا (أى ثخينا) من تحت العرش يشبه منى الرجال يقال له ماء الحيوان : (أى الحياة) فينبت الله به الأجساد والأبدان كما ينبت البقل حتى اذا تكاملت هذه الأجسام واكتملت مدة الأربعين سنة أحيا الله جبريل وميكائيل واسرافيل وحملة العرش ، وأمر اسرافيل بأخذ الصور فيأخذه فيدعو الله الأرواح فتتجمع فيه ثم يأمره بالنفخ ، يقال لهذه النفخة نفخـــة

البعث وهى المذكورة فى قوله تعالى : « **ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون** » ، وينادى قائما على صخرة بيت المقدس قائلا : (**أيتها العظام** البالية والأوصال المتقطعة ، والأعضاء المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، ان الله المصور الخالق يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء فيجتمعن) وتخرج الارواح من ثقوب الصور كأمثال النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فتدخل اجسادها فلا تخطىء روح جسدها ، وتمشى فيه كالسم فى اللديغ (ويقال : ان أرواح المسلمين تتوهج نورا ، وأرواح غيرهم مظلمة) فيحيا من مات ، ويفيق من غشى عليه كالأنبياء والشهداء فتنشق الأرض عن الجميع . وذلك قوله تعالى : « **واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . انا نحن نحيى ونميت والينا المصير . يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير** » .

وقوله تعالى : « **يوم يخرجون من الأجداث سراعا** » وقوله « **يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين الى الداع** » أى مسرعين الى اجابة نداء اسرافيل عليه السلام الى أرض المحشر والموقف الاعظم للعرض على رب العالمين ، وللحساب فى يوم الدين : « **يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله** » .

اذن فالله سبحانه وتعالى سيعيد الأجسام فى يوم القيامة كما كانت عليه فى الدنيا ثم تتصل كل روح بجسدها فيحيا العبد ويقدم للحساب والجزاء وهذا ما يقال له : البعث والنشر والاعادة .

وقد اجمع اهل الملل والأديان السماوية على اثبات البعث ، وجاء به القرآن الكريم صراحة فى غير ما آية ، كما وردت به السنة الصحيحة فى غير ما حديث . وعلى هذا فمنكر البعث كافر والعياذ بالله . والآن نسوق اليك طائفة من آيات الله تدل على ذلك :

قال تعالى : « **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير** » .

وقال : « **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه** » .

وقال جل شأنه : « **وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى انشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم** » .

وقال : ((ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون)) .

ومن السنة ما روى أن ابى بن خلف الجمحى على أصح الأقوال خاصم النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر البعث والمعاد ، وأتاه بعظم قد رم وبلى فقبضه وفتته بيده ، وقال : يا محمد اترى أن الله يحى هذا بعد ما رم وبلى ؟ فقال ﷺ : (نعم ويبعثك ويدخلك النار) .

وقد اختلف العلماء فى الاعادة : هل هى عن عدم ، أو عن تفريق . فذهب الى الأول اكثر علماء الكلام وقالوا : ان الله يعدم الذوات والأجزاء كلها ثم يعيدها بعد ذلك وعرفوا البعث بأنه : (احياء الله الموتى فى قبورهم ، واخراجهم منها بعد جمع أجزائهم الأصلية المعدومة التى من شانها البقاء من اول العمر الى آخره باعيانها واعراضها ورد أرواحها اليها) .

فعلى هذا التعريف . وعلى هذا المذهب يكون المعاد هو الجسم الأول ــ بعينه وذاته لا بمثله ، والا لزم أن يكون المثاب أو المعذب غير الجسم الذى اطاع او عصى وهو باطل بالاجماع ، وتكون الاعادة بعد ذهاب العين والأثر جميعا .

ويمكن الاستدلال له بقوله تعالى : ((كما بدانا اول خلق نعيده)) .

فقد بين سبحانه أن الاعادة تكون وفق الابتداء ، ولما كان الابتداء عن عدم فتكون الاعادة كذلك ، ولا يسمى الايجاد ثانيا اعادة الا اذا تقدمه عدم محض (أى خالص) .

وذهب الى الثانى وهو أن الاعادة عن تفريق جماعة من المعتزلة ومن وافقهم وقالوا فى تعريف البعث : (انه احياء الله الموتى فى قبورهم ، واخراجهم منها بعد جمع أجزائهم الأصلية المتفرقة التى من شانها البقاء من اول العمر الى آخره باعيانها واعراضها ورد أرواحها اليها) .

واستدلوا لذلك بقوله تعالى : ((واذ قال ابراهيم رب ارنى كيف تحيى الموتى قال او لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم)) .

وهذا بخلاف عجب الذنب ، واجسام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فانها لا تفنى ولا تبلى ، وكذلك الحكم فى أجسام غيرهم ممن لا تأكل الأرض أجسامهم . كالشهداء الذين قتلوا فى سبيل الحق والواجب ، وجعلوا كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وكالمؤذنين الذين احتسبوا آذانهم لله عز وجل ، وادخروا ثواب ذلك عند الله لا لأجرة يأخذونها على آذانهم من الغير .

وأول من تنشق عنه الأرض هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو أول من يبعث من قبره الشريف ، وأول وارد المحشر وأول من يمر على الصراط ، كما أنه أول من يدخل الجنة .

هذا ويكون البعث والحشر (وهو جمع الناس وغيرهم والموقف الأعظم) لمن يجازى خيرا أو شرا ، كالانس والجن والملائكة ، ومن لا يجازى كالبهائم ونحوها للقصاص من المعتدى عليها تحقيقا للعدل الالهى .

أخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاه الجماء من الشاه القرناء) . قال مجاهد بن جبير التابعى : تقاد المنقورة من الناقرة ، والمركوضة من الراكضة ، والجلحاء (التى لا قرون لها) من ذات القرنين ، والناس ينظرون ، ثم يقال : (كونى ترابا لا جنة ولا نارا) : أى بعد القصاص فى المحشر تصير البهائم ونحوها ممن لا يجازى ترابا .

وأما السقط (بكسر السين وسكون القاف) ، فان القى بعد نفخ الروح فيه وبعث وحشر وصار كأهل الجنة فى الجمال والسن وغير ذلك ، وان القى قبل نفخ الروح فانه لا يبعث ولا يحشر وهذا ما ذهب اليه المحققون من العلماء وصححه النووى واختاره ، لأن الأدلة تشهد طائفة منهم الامام الغزالى وجماعة الى انه لا يبعث ولا يحشر الا من يجـازى لعـدم تكليف البهائم ونحوها ولأنها ليست أهلا للكرامة . وقال العلامة الألوسى فى تفسيره لسورة التكوير : والى هذا القول أميل ، ولا أجزم بخطأ القائلين بالأول لأن ـــ لهم ما يصلح مستندا فى الجملة ، وانا شخصيا أرى هذا الرأى وأستريح له .

« بعض شبه المنكرين للبعث والرد عليهم » :

تمسك المنكرون للبعث بشبه واهية : فقال الكــافرون هــذا شيء عجيب ائذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » . فهؤلاء الكفار قد استبعدوا اعادتهم ورجوعهم احياء مرة اخرى بعد أن صاروا ترابا وعظاما وتعجبوا من ذلك قالوا : ان هذا لشيء عجيب ، فرد الله عليهم بقوله : « **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ** » ، فبين لهم انه عالم باجزائهم، وما تنقص الأرض منهم ، وقادر على جمع اجزائهم واعادتهم .

وقال الفلاسفة : لو اكل انسان انسانا بحيث صار الماكول جزءا من الآكل . فتلك الأجزاء يستحيل ان تعاد فيهما معا كما يستحيل ان تعـــاد فى أحدهما دون الآخر .

والجواب : هو ان المعاد الأجزاء الأصلية من ابتداء الخلق ، ولعل الله يحفظها من ان تصير جزءا أصليا لبدن آخر ، وأما غيرها فهى فضلات فى الآكل لا اعتبار لها .

وقالوا ايضا : البعث نوع من التناسخ المحال ، لأن الجسم المعاد ليس هو الأول ، وهذا عين التناسخ .

والجواب : ان المعاد يكون تناسخا لو لم يكن الجسم الثانى مخلوقا من الأجزاء الأصلية للجسم الأول . فهو هو ، ولم تعد الروح الا للجسم الذى كانت فيه ، وتناسخ الأرواح هو : انتقال الروح من بدنها بعد الموت الى ابدان اخرى مختلفة . فالبعث اذا ليس من تناسخ الأرواح وهــو المطلوب .

ثانيا : البعث واليوم الآخر فى العقيدة اليهودية :

لقد دعت الأديان السماوية كلها الى الايمان بالبعث واليوم الآخــر وجعلته جزءا من الايمـــان ولا شك لدينا أن الغاية التى من اجلها كان بعث الناس من قبورهم هو اثابة طائعهم ، ومعاقبة عاصيهم لأن عدل السماء اقتضى هذا لذلك . ولقد رسمت الشريعة الاسلامية صورة مجسدة ليـــوم القيامة أبرزت فيها كيف ينعم الطائعون وكيف يعاقب الآثمون . ومما لا شك فيه ان العقاب هو اسلوب الحياة فى ردع الناس عن ارتكاب الشرور كما

أن الثواب والعقاب قوة عليا قاهرة لا يفلت منها احد ولا تخفى عليهـا خلفية كانت مفعولية الثواب والعقاب ذات آثار بالغة وكان سلطانها على النفوس سلطانا متمكنا من الأشرار والأخيار جميعا .

واليهودية واحدة من الأديان السماوية التى لا يمكن أن تغفل اليوم الآخر وما به من عقاب وثواب ولكن الناظر الى كتاب اليهود المحرفة وتراثهم الدينى يجد أنها تتحدث عن اليوم الآخر بما أباح للمفكرين أن يختلفوا فى معتقدهم فيه وتتعدد آراؤهم تبعا لذلك .

ففريق من المفكرين يرى أن اليهود ينكرون اليوم الآخر وينكرون ما به من ثواب وعقاب ويعتقدون أن الثواب والعقاب ينالهم البشر فى الدنيا فالصالحون لهم السعادة وراحة البـال وغيرهم يعـاقب بالفقر والمرض والقلق . يقول ول ديورانت « واليهود قلما كانوا يشيرون الى حياة أخرى بعد الموت ولم يرد فى دينهم شىء عن الخلـود وكان ثوابهـم وعقـابهم مقصورين على الحياة الدنيا » (١) فهم يرون أن الموت نوم عميق بلا يقظة وفى هذه الحياة الدنيا كما يقول لوبون يجب أن يتحقق وعده يهوه ووعيده حول مراعاة الشريعة . ويرى سليمان مظهر بانه لا يوجد فى الدين اليهودى جحيم يخصص لعقاب غير المؤمنين ولكن شيول أو أرض الظلمات التى تحت الأرض لم تكن أقل هولا من الجحيم ويلقى فيها كل من يموت سواء كان خبيثا أو طيبا ويقول آرثر هرتزبرج أن كتاب اليهود المحرف يعد الحياة الدنيا وحدها هى عالم الانسـان وليس هنـاك اعتقاد بعد ذلك فى بعث أو جنة أو نار . ويقول د . محمد جابر « ولعـل اشـمل ما ورد أو جاء بتاريخ أبى الفداء وهو قول يشاركه فيه غيره من كتاب الفرق القدماء قال : وليس فى التوراة ذكر للقيـامة ولا الـدار الآخرة ولا فيهـا ذكر للبعث ولا الجنة ولا النار وكل جزاء فيها انما هو معجل فى الدنيا فيجزون على الكفر والمعصية بالموت ومنع القطر وأن ينزل عليهم بدل المطر الغبار والظلمة . والفريق الثانى من المفكرين يرى أن فكرة غامضة راودت خيال اليهود عن العالم الآخر وانه قد ورد فى التلمود ذكر الجنة وللنـار ولكن فى صـورة مضطربة أقرب الى الخرافة والأساطير منها الى حقائق العقيـدة . فنار جهنم كما يذكر التلمود لا سلطان لها على مذنبى بنى اسرائيل ولا سلطان لها على الحاخامات . فهم شعب الله المختار مهما أذنبوا فان الله لن يعاقبهم على اساءتهم فالجنة لهم وحدهم . ولقد بين القرآن الكريم هذه المعتقدات الباطلة ودحضها فقال وهو يتحدث عن مزاعمهم الباطلة ((**فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ياخذون عرض الأدنى ويقولون سيغفر لنا وان ياتيهم**

عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون »
(الأعراف ١٦٩) . ويقولون سيغفر لنا ولا يؤاخذنا بما أذنبنا فاننا سلالة أنبيائه ونحن أبناؤه وأحباؤه وما هذه الأقوال الا أمانى وغرور وأوهام . وقد أبطل الله حجتهم وفضح مزاعمهم وأعلن الطريق الواضح الذى يصل به الانســـان الى مثوبة ربه ورضوانه ولقد أنكر القرآن الكريم فريتهم بأن الجنة لهم وحدهم وبين أن هذا ليس واقعا ولكنه أمل اليهود ولن يتحقق فقال « وقالوا لن يدخل الجنة من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (البقرة : ١١١) . والأمانى جمع أمنية وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه فمـــا دعواهم هـــذه الا أمانى يتمنوها على الله بغير حق ولا برهان سولتها لهم أنفسهم التى استحوذ عليها الشيطان وخدعهـــا بالأباطيل والأكاذيب ثم طالبهم القـــرآن الكريم بالدليـــل على اختصاصهم بالجنة وحدهم **« قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين »** .. وذلك لأن دعوتهم هذه لا تثبت الا بدليل من وحى أو كتاب منزل وليس هناك وحى بذلك . وتوراتهم خالية من ذلك تماما . فلن ينال الجنة الا من عمـــل عملا صـــالحا كمـــا ورد فى التلمود أيضا أن اليهود الذين اقترفوا الذنوب يذهبون مع الأجانب الى نار جهنـــم وسيمكثون فيها اثنى عشر شهرا فقط . فهم يرون أو بعضهم يرى أن عذابهم فى النار سوف يكون لأيام معدودة **« وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودة . قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده . أم تقولون على الله ما لا تعلمون . بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئة فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »** . (البقرة ٨٠:٨١) **« ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أيام معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون »** (آل عمران : ٢٣) . واليهود يعنون بهذه الأيام المحدودة أياما قليلة تختلف الروايات فى تحديدها . ولما كان هذا الحكم بأنهم سيبقون فى النار أيام محدودة لا بد فيـــه من عهـــد ســـابق بين الله وبينهم والا كان قولا بغير علم وكذبا على الله تعالى فقد أمر الله سبحانه وتعالى محمد صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم بذلك « قل اتخذتم عنـــد الله عهدا فلن يخلف الله عهده » (البقرة : ٨١) . أى هل وعدكم الله بعدم عذابكم الا لأيام معدودات فان كان وعدكم فوعده حق . فالله لا يخلف عهـــده . فان قلتم ان الله وعدنا فهـــذا قـــول باطل لأن قانون العقـــاب والثواب حددهما قوله تعالى : **« بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »** . وبذلك تكون الآية قد ردت على اليهود أبلغ رد وكذبتهم فى دعواهم أن النار لن تمسهم . وبذلك بطل

قولهم ان الله وعدهم بذلك فهم بذلك كاذبين . ان كان الله لم يعاهدهم بذلك فهم يقولون على الله ما لا يعلمون . اذن فهـــم كذبة مفترون على الله .

وفكرة البعث هذه لم ترد فى خلد اليهود الا بعد ان فقدوا الرجاء فى أن يكون لهم سلطان فى هذه الأرض ولعلهم اخذوا هذه الفكرة من الفرس أو لعلهم أخذوا شيئا منها عن المصريين .

اختصارات أسفار العهد القديم

١ — سفر التكوين	تك
٢ — سفر الخروج	خر
٣ — سفر اللاويين	لا
٤ — سفر العدد	عد
٥ — سفر التثنية	تث
٦ — سفر يشوع	يش
٧ — سفر القضاة	قض
٨ — سفر ايوب	اى
٩ — سفر المزامير	مز
١٠ — سفر الأمثال	ام
١١ — سفر اشعياء	اش
١٢ — سفر ارميا	ار
١٣ — سفر حزقيال	حز
١٤ — سفر دانيال	دان
١٥ — سفر هوشع	هو
١٦ — سفر يوئيل	يوء
١٧ — سفر عاموس	عا
١٨ — سفر عويديا	عو
١٩ — سفر يونان	يون
٢٠ — سفر ميخا	مى
٢١ — سفر ناحوم	نا
٢٢ — سفر حبقوق	حب
٢٣ — سفر صفنيا	صف
٢٤ — سفر زكريا	زك
٢٥ — سفر ملاخى	ملا
٢٦ — سفر اخبار الأيام الأول	١ خب
٢٧ — سفر اخبار الأيام الثانى	٢ خب
٢٨ — سفر عزرا	عز
٢٩ — سفر نحميا	نح
٣٠ — سفر راعوث	ر ا
٣١ — سفر صموئيل الاول	١ ص
٣٢ — سفر صموئيل الثانى	٢ ص
٣٣ — سفر الملوك الأول	١ مل

٣٤ ــ سفر الملوك الثانى	٢ امل
٣٥ ــ سفر أســتير	١ س
٣٦ ــ سفر الجامعة	جــا
٣٧ ــ سفر نشيد الانشاد	ن . . ن
٣٨ ــ سفر حجى	حــج
٣٩ ــ سفر مراثى ارميا	م . ١ ر

اختصار اسفار العهد الجديد

١ ـ انجيل متى	مت
٢ ـ انجيل مرقس	مـر
٣ ـ انجيل لوقـا	لـو
٤ ـ انجيل يوحنـا	يـو
٥ ـ أعمال الرسل	ا ع
٦ ـ الرسالة الى أهل رومية	ر و
٧ ـ الرسالة الأولى الى أهل كرونثوس	اكـو
٨ ـ الرسالة الثانية الى أهل كرونثوس	٢ كو
٩ ـ الرسالة الى أهل غلاطية	غـل
١٠ ـ الرسالة الى أهل أفس	ا ف
١١ ـ الرسالة الى فيلبى	فـى
١٢ ـ الرسالة الى كولوسى	كـو
١٣ ـ الرسالة الأولى الى أهل تسالونيكى	اتس
١٤ ـ الرسالة الثانية الى أهل تسالونيكى	٢ تس
١٥ ـ الرسالة الأولى الى تيموثاوس	١ تى
١٧ ـ الرسالة الثانية الى تيموثاوس	٢ تى
١٧ ـ الرسالة الى تيطس	تـى
١٨ ـ الرسالة الى فليمون	فـل
١٩ ـ الرسالة الى العبرانيين	عب
٢٠ ـ رسالة يعقوب	يـع
٢١ ـ رسالة بطرس الأولى	١ بط
٢٢ ـ رسالة بطرس الثانية	٢ بط
٢٣ ـ رسالة يوحنا الأولى	١ يـو
٢٤ ـ رسالة يوحنا الثانية	٢ يـو
٢٥ ـ رسالة يوحنا الثالثة	٣ يـو
٢٦ ـ رسالة يهـوذا	يـه
٢٧ ـ رؤيا يوحنـا	روء

الفهرســت

الموضـــوع	الصفحة

امريـــــكان بـــــرس
٧ ش منشاة الفاضل
خلف عمارة استرا ميدان التحرير
ت : ٣٥٤٧٥٠٦ ـ القاهرة